الفصل الثاني

شعر بني هاشم: دراسة موضوعية

أولاً– الفخر

ثانيًا– المدح

ثالثًا– الرثاء

رابعًا– الهجاء

خامسًا– الغزل والحب

سادسًا– الحكمة

سابعًا– التبتل والدعاء

ثامنًا– التهاني

تاسعًا– شعر الإعداد التربوي

الفصل الثاني

شعر بني هاشم: دراسة موضوعية

لقد أبْدَعَ بنو هاشم في مُعظم أغراض الشعر العربي. والذي تم جمعه في هذا الكتاب يدلُّ على تعدُّد الظواهر الموضوعية في أشعارهم، فلم يُقَصِّروا إلاَّ في الغزَل الذي هو أوسعُ أغراض الشعر العربي، أمَّا المدحُ فقد اقتصر على مدح النبي صلى الله عليه وسلم، الذي هو أشرف الممدوحين، ماعدا أبياتًا قليلة في مدح الأنصار قيلت إحقاقًا للحق، بمناسبة ما قاله البعضُ من هجاءٍ فيهم. والأغراض الشعرية من الأمور التي تتفاوَتُ فيها طباعُ الشعراء، وهو ما قرَّره ابن قتيبة قائلاً: "والشعراءُ– أيضًا– في الطبع مختلفون: منهم مَنْ يَسْهُلُ عليه المديح ويَعْسُر عليه الهجاء، ومنهم مَنْ يتيسَّر له المراثي ويتعذَّر عليه الغزَل. وقيل للعَجَّاج: إنك لا تُحْسِنُ الهجاء؟ فقال: إنَّ لنا أحلامًا تمنعُنا من أن نَظْلِم، وأحسابًا تمنعنا من أن نُظْلَم، وهَلْ رأيْتَ بانِيًا لا يُحْسِنُ أنْ يَهْدِم؟"، وعلَّق ابنُ قتيبة على كلام العَجَّاج قائلاً: "وليس هذا كما ذَكَرَ العَجَّاجُ، ولا الْمَثَلُ الذي ضَرَبَهُ لِلْهِجاء والمديح بشكل، لأنَّ المديح بِنَاءٌ والهجاء بِنَاءٌ، وليس كُلُّ بانٍ بِضَرْبٍ بانيًا بغيره. ونحن نجد هذا بعينه في أشعارهم كثيرًا، فهذا ذو الرمة أحسنُ الناسِ تشبيهًا وأجْوَدُهم تشبيبًا، وأوْصَفُهم لِرَمْلٍ وهاجِرَةٍ وفلاة وماءٍ وقُرَادٍ وحَيَّة، فإذا صارَ إلى المديح والهجاء خانه الطبع، وذلك أخَّرَهُ عن الفُحُول... وكان الفرزدَقُ زِيرَ نِسَاءٍ وصاحبَ غَزَل، وكان مع ذلك لا يُجيد التشبيب، وكان جريرٌ عفيفًا عِزْهَاةً عن النساء، وهو مع ذلك أحسنُ الناسِ تشبيبًا..."([1]).

ونقل ابنُ رشيق قول بعض العلماء: "بُنِيَ الشعرُ على أربعة أركان، وهي: المدح والهجاء والنسيب والرثاء. وقالوا: قواعد الشعر أربع: الرغبة، والرهبة، والطرب، والغضَب: فمع الرغبة يكون المديح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورِقَّة النَّسيب، ومع الغضَب يكون الهجاء والتوعد والعِتَابُ

([1]) الشعر والشعراء لابن قتيبة، جـ1– ص93 و94.

الموجِع"([1])، ونقلَ قوْلَ أحد النقاد: "أصعبُ الشعر الرثاء، لأنه لا يُعمَلُ رغبةً ولا رَهبة"([2]).

والأغراض الشعرية متعددة ومتداخلةٌ، ومتقاربة، ولذلك يرى أبو هلال العسكري "أنَّ الفَخرَ هو مَدْحُكَ نفسَك بالطهارة والعفاف والْحِلْم والعِلْم والْحَسَب، وما يجري مجرى ذلك، والمرثية مديح الميت، والفَرْق بينهما وبين المديح أن تقول: كان كذا وكذا، وتقول في المديح: هو كذا وأنتَ كذا"([3]).

لقد تعدَّدَت الأغراض الشعرية في أشعار بني هاشم مجتمعين، وإن كانت عند الشاعر الواحد ليست كذلك. وربما كان هذا بسبب ضياع الكثير وأن ما تم جمعه هو ما تبقى من أشعارهم في المصادر العربية. وإذا كان شعراء هذا الكتاب منهم شعراء جاهليون ومخضرمون وإسلاميون، فمن المتوقَّع وجود تطوُّر طرأ على المضمون الشعري بين الجاهلية والإسلام. وقد أفردتُ المباحث القادمة لدراسة الظواهر الموضوعية في أشعارهم، من خلال أشعارهم نفسها.

أولاً– الفخر

يُعَدُّ الفخر أكبر الظواهر الموضوعية في الشعر الهاشمي، في الجاهلية وفي الإسلام، فهو أغزر الأغراض الشعرية مادَّةً فيما وجدتُه من شعرهم. وقد تناولتُ الفخر في شعرهم من خلال التفريق بين الجاهليِّ منه والإسلامي.

أ– الفخر قبل الإسلام:

لقد تعدَّدَت نواحي الفَخر قبل الإسلام، فهناك عناصر أخلاقية، وهناك أعمالٌ وإنجازاتٌ حققها بنو هاشم بن عبد مناف، وهناك أصلُهم الطاهر، حيث يرجع نسبهم إلى خليل الله إبراهيم عليه السلام، وهناك جوارُهم لبيت الله وقيامهم على خدمته

([1]) العمدة لابن رشيق، جـ1– ص193 و194.

([2]) السابق، جـ1– ص198.

([3]) كتاب الصناعتين للعسكري، ص121.

وخدمة حَجِيج البيت. لكنَّ الأمر لا يخلو من فَخْرٍ جاهليٍّ، في أحيان قليلة، حيث افتخر أبو لهب بنسبه من جهة أمِّه إلى خُزَاعة، بل رأى تأخُّر الناس عن المفاخر إذا لم يكن لهم نسبٌ إلى خزاعة، حيث قال([1]):

إذَا الْقُرَشِيُّ لَمْ يَضْرِبْ بِعِرْقٍ   خُزَاعِيٍّ فليس من الصَّمِيمِ
وكَيْفَ يكونُ ذَا شَرَفٍ ومَالٍ   تَخَطَّتْهُ دَلالاتُ القُرُومِ

وهو فخر جاهليٌّ، بل هو عكس ما يقوله المفتخِرُون من بني هاشم، حيث يفتخرون بالحسب (المحض) أي الخالص الذي لم يختلط به عِرْقٌ آخَر، لكنَّ أبا لهب خرَجَ على التقاليد الهاشمية في الفخر. وسواءٌ أكان قاله قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم أم بعدها، فإنه لا فرْق في ذلك، فإنه لم يُسْلِم، ولم يقُلْ إلاَّ فخرًا جاهليًّا.

أمَّا أهم مادة للفخر عند بني هاشم، فقد كانت مكارم الأخلاق، حيث يتناثر الحديث عن مكارم الأخلاق في شعر الهاشميين، في المدح والرثاء والفخر، لكنَّ بعض القطع الواردة لهم، اختصَّتْ بالحديث عن العفَّة، وهي مكرمة سامية لهم. وهذا عبدُ الله بن عبد المطلب، تعدَّدت في شعره القطعُ الشعرية التي تتعلق بذلك، ومنها ما يُرْوَى عنه أنه كان قد ذهب مع أبيه عبد المطلب إلى اليمن، فنزل بقصر من القصور، وذهب أبوه عبد المطلب في حاجة وتركه عند متاعه وسيفه عند رأسه، فنَزَلت كاهنةٌ يمامية، وفي يدها كيس من الورق، فوثبت عليه ثم قالت له: هل لك يا سيدي من فرحتين عاجلتين؟ قال: وما هما؟ قالت: تجامعني الساعة، وتأخذ هذه الدراهم، وأبذل لك مائة من الإبل محملة تمرًا وبسرًا وسمنًا، فلما استتم كلامها قال: إليك عني، فما أقبح صورتك يا ويلك، أما علمتِ أنَّا قومٌ لا نرتكب الآثام؟ وتناول سيفًا كان إلى جواره، فانهزمت المرأة ورجعت خائبة، فأقبل أبوه فوجده وسيفه مسلول وهو يقول([2]):

أَنَرْتَكِبُ الْحَرَامَ بِغَيْرِ حِلٍّ   ونَحْنُ ذَوُو الْمَكَارِمِ في الأنَامِ

([1]) القطعة رقم (2) لأبي لهب، في قسم الجمع والتحقيق.

([2]) القطعة رقم (3) من شعر عبد الله بن عبد المطلب.

إِذَا ذُكِـــرَ الْحَـــرَامُ فَنَحْـــنُ قَـــوْمٌ جَوَارِحُنَـا تُصَـانُ عَـنِ الْحَـرَامِ
مَعَـــاذَ اللهِ، إِنَّـــا مِـــنْ أُنَـــاسٍ أَمَاجِيـــدٍ جَحَـــاجِحَةٍ كِـــرَامِ

كما يُرْوَى عن عبد الله بن عبد المطلب، أنه مَرَّ– وهو ذاهب إلى بيت زوجه آمنة بنت وهب– على امرأةٍ ذات جَمالٍ، دَعَتْهُ إلى نفسِهَا؛ لِمَا كانت ترى على وجهه من النور، فأبَى وقال([1]):

أَمَّـــا الْحَـــرَامُ فالْمَمَـــاتُ دُونَـــهْ
والْحِـــلُّ لا حِـــلَّ فأسْـــتَبِينَهْ
فَكَيْـــفَ بِـــالأَمْرِ الَّـــذِي تَعْنِـــينَهْ
يَحْـــمِي الْكَرِيـــمُ عِرْضَـــهُ ودِينَـــهْ

وهو في قطعة أخرى يحكي أنه دعته امرأة جميلة إلى نفسها، مع أن بها مواصفات جمالية هي قِمَّةُ الجمال في ذلك الحين، ويحكي امتناعه عن هذا الْمَطْلَب المشين([2]):

وَأَحْـوَرَ مَخْضُـوبُ البَنَـانِ مُحَجَّـبٌ دَعَانِي فَلَمْ أَعْرِفْ إلى ما دَعَا وَجْهَا
بَخِلْـتُ بِنَفْسِـي عَـنْ مَقَـامٍ يَشِـينُهَا فَلَسْـتُ مُرِيـدًا ذَاكَ طَوْعًـا ولا كَرْهَـا

لقد كان عبدُ الله بن عبد المطلب يحفر في الأذهان مواقف العفة، ويُؤسِّس لها شعريًّا، بل إن ما قاله أخوه الأكبر الحارثُ بن عبد المطلب كان بعده، لأنَّ ما قاله الحارثُ كان قبل وفاتِه بشهر، وقد تُوفي بعد عام الفيل بعام. أمَّا عبدُ الله فقد توفي قبل عام الفيل بأشهر.

ويُرْوَى عن الحارث خبر، هو أنه استأذن أحدُ مُلوك حِمْير، عبدَ المطلب، في أن يُنادِمَه ابنُه الحارث، فأذِنَ له. وكان الحميريُّ أجمل ملوك حمير، وكانت امرأته أجمل منه، فكان إذا شرب مع الحارث خرجت زوجته فجلست معهما تسقيهما، فعشقت

([1]) القطعة رقم (4) من شعر عبد الله بن عبد المطلب.

([2]) القطعة رقم (5) من شعر عبد الله بن عبد المطلب.

الحارثَ زوجةُ الملك، فراسلَتْهُ، فأعلَمَها أنه مُحْصَنٌ عن الزِّنا، وأنه لا يخون نديمه، فألَحَّتْ عليه، فكتب هذه الأبيات إليها في العِفَّة([1]):

لا تَطْمَعِي فيما لَدَيَّ؛ فإنَّني عَفٌّ مُنَادَمَتي عَفِيفٌ مِئْزَرِي
أسْعَى لأُدْرِكَ مَجْدَ قَوْمٍ شَادَهُ عَمْرٌو قَطِينُ البيْتِ عِنْدَ الْمَشْعَرِ
فاقْنَيْ حَيَاءَكِ واعْلَمِي أنِّي امْرُؤٌ آبَى لِنَفْسِي أنْ يُعَيَّرَ مَعْشَرِي
أنِّي أُزَنُّ بِجَارَتِي أوْ كَنَّتِي أوْ أنْ يُقَالَ صَبَا بِعُرْسِ الْحِمْيَرِي

فلقد ترك لنا بنو هاشم مجموعة من القطع الشعرية التي تقال في الفخر بالعِفَّة، وهُم الأعَفُّ رجالاً ونساءً، حتى كان الرسولُ صلى الله عليه وسلم يتنقَّلُ بين الأصلاب الطاهرة والأرحام الطاهرة، إلى أن اختار الله له بني هاشم، الذين هم مشهورون بالعِفَّة.

وقد كانت الإنجازاتُ الهاشمية مدعاةً للفخر بها، حيث حَفَر هاشمُ بنُ عبد مناف، بئر بَذَّر، وهي البئر التي عند خَطَم الْخَنْدَمَة- جبل على فم شعب أبي طالب- وربما تراجز الناسُ حولها، كما يتراجزون حول الآبار الأخرى، ولكن الذي يعنينا هنا هو أنَّ هاشمًا قال حين حفرها([2]):

أَنْبَطْتُ بَذَّرًا بِمَاءٍ قَلاَّسْ
جَعَلْتُ مَاءَهَا بَلاغًا لِلنَّاسْ

ولقد كانت أعمالُ هاشمٍ أجَلَّ بكثير من حفر بئر أو آبار، كما اتضح لدينا من التمهيد، فمن المستبعد أن يكون ذلك مدعاة فخره أو مَنِّه بهذا العمل، ولكنه يذكر ذلك للذكرى، فقد استنبط هاشمٌ هذه البئر بماء زَخَّار، وجعل ماءه وَاصِلاً للناس وكافيًا لهم.

([1]) القطعة رقم (2) من شعر الحارث بن عبد المطلب.

([2]) القطعة رقم (2) من مجموع شعر هاشم، في هذا البحث.

وقد يتسبَّب التنافسُ أو بعض الأحداث الشخصية في الفخر، حيث افتخر الحارثُ ابنُ عبد المطلب، على خِدَاشِ بْنِ عبد الله بن قيس، بآبائه وذكَرَ فَضْل بني عبد مناف، وقد كان مشاركًا مع أبيه في حفر زمزم، فهو يُذَكِّر بها، قائلاً([1]):

نَحْـنُ حَفَرْنَـا فـي أبـاطِحِ مكـةٍ حَفِيرًا لِطُولِ الدَّهْرِ عِنْدَ العَوَاقِبِ
نَسْقِي بِهَا الْحَجِيجَ في كُلِّ ضَيْقَةٍ إذَا عَطِشُوا يَنْزُونَ نَزْوَ الْجَنَادِبِ
... ...
إذا فَزِعَ الْحَيُّ التِّهَامُونَ أرْفَضُوا إلَيْنَا رِجَالاً بَيْنَ رَاضٍ وعَاتِبِ

كما افتخر الحارثُ بنفسه، وبأخلاقه، وبشجاعته، وبنجدته، حيث قام بنجدة بني سعد، حين أغار عليهم رجلان من عِجْل وشيبان، ولم يكن في بني سعد– حينئذٍ– إلا النساءُ والصِّبيان، فقام الحارثُ ومَنْ معه من قريش بنجدتهم، وقال مفتخرًا بالتصدِّي للمغيرين([2]):

أبْلِغْ قُرَيْشًا إذَا ما جِئْتَ نَادِيَهَا أنَّ الشجاعةَ مِنْهَا والنَّدَى خُلُقُ
لَوْلا فَوَارِسُ مِنْ كَعْبٍ ذَوُو شَرَفٍ يومَ القُصَيْبَةِ لَمَّا احْمَرَّتِ الْحَدَقُ
أمْسَتْ نِسَاءُ بَنِي سَعْدٍ يَقُودُهُمُ لَيْثٌ لأقْرَانِهِ في الْحَرْبِ مُعْتَنِقُ
نَادَتْهُمُ يومَ صَمُّوا عن مُنَاشَدَتي صُمُّ القَنَا زَغْزَغَتْ أطْرَافُهَا الْخُزُقُ

ومن المنطقيِّ أن يفخر المرءُ إذا اعتدَى عليه مُعتدٍ وقام بالتصدِّي له، فمن حقِّه أن يفخر عليه، كما فخر عبد الله بنُ عبد المطلب على من اعتدَوْا عليه وحده وكانوا جماعة، فقتل بعضهم، فانشغلوا عنه بقتلاهُم. فقد خرج بعضُ اليهود يُريدون قتله وقد

([1]) القطعة رقم (1) من مجموع شعر الحارث بن عبد المطلب، في هذا البحث.

([2]) القصيدة رقم (3) من شعر الحارث بن عبد المطلب، في هذا البحث.

ذهب للصيد، فلمَّا أحاطوا به، وضع نَبْلةً في قوسه، فرماهُم، فقتل واحدًا منهم، ثم رماهم بأربع نِبَالٍ، فقتل أربعة، فانشغلوا عنه بقَتْلاهُم، وقال عبد الله مفتخِرًا([1]):

وَلِـي هِمَّـةٌ تَعْـلُو عَلَـى كُـلِّ هِمَّـةٍ وقَلْـبٌ صَـبُورٌ لا يَـمَلُّ مِـنَ الْحَـرْبِ
ولِـي نَبْلَـةٌ أرْمِـي بِهَـا كُـلَّ ضَيْـغَمٍ وتَخْرِقُ في اللَّبَّاتِ أيضًا وفي الْقَلْبِ
وَلَـمَّا رَأيْـتُ الْقَـوْمَ قَـدْ جَـدَّ سَـيْرُهُمْ إلَـيَّ وَكُـلٌّ طَالِـبٌ يَبْتَـغِي قُـرْبِي
نَثَـرْتُ نِبَـالاً ثُـمَّ أرْسَـلْتُ بَعْضَـهَا كَمِثْلِ لَمِيعِ الْبَرْقِ مِنْ خَلَلِ السُّحْبِ
فأرْبَعَـةٌ مِنْـهَا أصَـابَتْ لأرْبَـعٍ ولَوْ كاثَرُوني صُلْتُ بِالطَّعْنِ والضَّرْبِ

وقد افتخَرَ عبد الله بنُ عبد المطلب، بمكانة عائلته، وبأفضليتها على سادة الأرض، وبأمجاد أبيه وأجداده، وبطِيبِ العِرْق وبالحسب المحض- أي الخالص الذي لا تشوبه شائبة- قائلاً([2]):

لقَدْ حَكَمَ السَّاداتُ في كُلِّ بَلْدَةٍ بـأنَّ لَنَـا فَضْـلاً عَلَـى سَـادَةِ الأرْضِ
وأنَّ أبِي ذُو الْمَجْدِ والسُّؤدُدِ الَّذِي يُشَـارُ بِـهِ مـا بَـيْنَ نَشْـزٍ إلـى خَفْـضِ
وَجَـدِّي وآبَـاءٌ لَـهُ أثَّلُـوا الْعُـلا قَـدِيمًا بِطِيـبِ الْعِـرْقِ والْحَسَـبِ الْمَحْـضِ

وكانت حربُ الفِجار بين قيس وقريش، في الجاهلية، مدعاةً للفخر، فقد افتخرت عاتكة بنت عبد المطلب، بقومها في يوم عُكاظ، ووصفتهم في هذه الحرب التي حضرها الرسول صلى الله عليه وسلم وكان عُمره عشرين عامًا، فقالت عاتكة([3]):

سَـائِلْ بِنَـا فـي قَوْمِنَـا وَلْيَكْـفِ مِـنْ شَـرٍّ سَمَاعُـهْ

([1]) القطعة رقم (1) من شعر عبد الله بن عبد المطلب.

([2]) القطعة رقم (2) من شعر عبد الله بن عبد المطلب.

([3]) القطعة رقم (5) من شعر عاتكة بنت عبد المطلب.

قَيْســـًا ومَـــا جَـــمَعُوا لَنـــَا فـــي مَجْمَـــعٍ بَـــاقٍ شَـنَاعُـــهْ
فِيـــــهِ السَّـنَـــــوَّرُ وَالْقَـــــنَا وَالْكَـــبْشُ مُلْتَـــمِعًا قِنَاعُـــهْ
بِعُـــكَاظَ يُعْـــشِي النَّاظِرِيـــ ـنَ- إذَا هُـمُ لَمَحُـوا- شُعَاعُـهْ

كما افتخَرَتْ دُرَّةُ بنتُ أبي لهب، بقومها في الحرب نفسها، فقالت([1]):

لاقَـــوْا غَـــدَاةَ الـــرَّوْعِ ضَـــمْرَزَةً فِيهَـــا السَّنَـــوَّرُ مِـــنْ بَـــنِي فِهْـــرِ
مَلْمُـــومَةً خَرْسَـــاءَ تَحْسِـــبُهَا لَـــمَّا بَـــدَتْ مَوْجـــًا مِـــنَ الْبَحْـــرِ
... ...
قَـــوْمٌ لَـــوَ انَّ الصَّـــخْرَ صَالَدَهُـــمْ صَـــلُبُوا ولانَ عَـــرَامِسُ الصَّـــخْرِ

وقد كان لتربية صفية بنت عبد المطلب ابنَها الزبيرَ على الشِّدة، أثرٌ في نفسه، فقد كان يهزم من تُسوِّل له نفسُه مُباطشته، وقد مَرَّ رجُلٌ عليها، فسألها عن ابنها الزبير، فقالتْ: ماذا تريد؟ فقال: أريد مباطَشَتَه ومصارعته. فقالت: ها هو ذاك. ثم مَرَّ عليها وقد غَلَبَهُ الزبير، فقالت له صفية مُفتخِرَةً بابنها وساخرة من الرجُل:

كَيْـــــفَ رَأَيْـــــتَ زَبْـــــرَا
أأقِطـــــــــًا أوْ تَـــــــــمْرَا
أمْ قُرَشِـــــيًّا صَـــــارِمًا هِزَبْـــــرَا

كما كانت أعمال الآباء والأجداد وإنجازاتهم مدعاةَ فخر في كثير من المواقف، وقد سبق فخر الحارث بن عبد المطلب، بحفر زمزم، وهذه صفية بنت عبد المطلب تفخر على ضرَّتها، بحفر بِئْر بَذَّر التي حفرها هاشمُ بن عبد مناف، فقد كان بنو عبد الدار قد حفروا بئرًا اسمها أمُّ أحْراد، فقالت أميمة بنت عُمَيْلة بن السباق بن عبد الدار، تفاخر ضَرَّتها صفية بنت عبد المطلب:

نحـنُ حَفَرْنَـا الْبَحْـرَ أمَّ أحْـرَادْ

([1]) القطعة الوحيدة لدرة بنت أبي لهب، في قسم الجمع.

لَيْسَتْ كَبَذَّرَ النَّزُورِ الْجَمَادْ

فأجابَتْها صفية بنتُ عبد المطلب، قائلة([1]):

نَحْنُ حَفَرْنَا بَذَّرْ
بِجَانِبِ الْمُسْتَنْذَرْ
تَرْوِي الْحَجِيجَ الأكْبَرْ
مِنْ مُقْبِلٍ ومُدْبِرْ

كما افتخرتْ صفيةُ بحفر أبيها زمزم، عند الكعبة، قائلة([2]):

نَحْنُ حَفَرْنَا لِلْحَجِيجِ زَمْزَمْ
شِفَاءُ سُقْمٍ وطَعَامُ مُطْعَمْ
رَكْضَةُ جِبْرِيلَ ولَمَّا تَعْظُمْ
سُقْيَا نَبِيِّ اللهِ فِي الْمُحَرَّمْ
ابْنِ خَلِيلِ رَبِّنَا الْمُكَرَّمْ

لقد اتخذ الفخر في الجاهلية مظاهر كثيرة، فهناك الفخر بالنسب الطاهر، وبالعفة ومكارم الأخلاق والقيم المعروفة في الجاهلية، وبالإنجازات والأعمال، وبالآباء والأجداد وأعمالهم وأمجادهم، وبالقوة الحربية في المعارك، إلاَّ مَنْ شَذَّ على ذلك، مثل الفخر القبلي المعكوس الذي افتخره أبو لهب.

ب- الفخر في الإسلام

([1]) الأرجوزة رقم (13) من شعر صفية بنت عبد المطلب. مع ملاحظة أن صفية لم يكن لها زوج منذ توفي زوجها العوام بن خويلد، في حرب الفجار، فلم تكن لها ضرة في الإسلام، مما يؤكد أن هذه القطعة من شعرها الجاهلي.

([2]) القطعة رقم (20) من شعر صفية بنت عبد المطلب.

لقد اتخذ الفَخْرُ وجهةً أخرى في الإسلام، حيث صار المؤمنون يفخرون بانتسابهم للإسلام، ولنبي الإسلام، وبنصر الله للمؤمنين، وبهداية الله لهم، وغير ذلك من مظاهر الفخر التي سيأتي تفصيلها.

فهذا حمزةُ بن عبد المطلب يفتخِرُ بإسلامه وهدايته، وبآيات القرآن الكريم، بقوله[1]:

حَمِدتُ اللهَ حينَ هَدَى فُؤَادِي ... إلى الإسْلامِ والدِّينِ الْحَنيفِ
لِدِينٍ جَاءَ مِنْ رَبٍّ عَزِيزٍ ... خَبِيرٍ بالعِبَادِ بِهِمْ لَطِيفِ
إذَا تُلِيَتْ رَسَائلُهُ عَلَيْنَا ... تَحَدَّرَ دَمْعُ ذِي اللُّبِّ الْحَصِيفِ
رَسَائلُ جَاءَ أحْمَدُ مِنْ هُدَاها ... بآيَاتٍ مُبِينَاتِ الْحُرُوفِ

كما افتخَرَ حمزةُ بنَصْر الله للمؤمنين في بدر، فقال[2]:

أَلَمْ تَرَ أَمْرًا كانَ مِنْ عَجَبِ الدَّهْرِ ... ولِلْحَيْنِ أسْبَابٌ مُبَيَّنَةُ الأمْرِ
وما ذَاكَ إلاَّ أنَّ قَوْمًا أفادَهُمْ- ... فخَانُوا- تَوَاصٍ بالعُقُوقِ وبالكُفْرِ
عَشِيَّةَ رَاحُوا نحوَ بَدْرٍ بِجَمْعِهِمْ ... فكانُوا رُهُونًا للرَّكِيَّةِ مِنْ بَدْرِ
وكُنَّا طلَبْنَا العِيرَ لَمْ نَبْغِ غَيْرَها ... فَسَارُوا إلينا فالْتَقَيْنَا على قَدْرِ
فَلَمَّا الْتَقَيْنا لَمْ تكُنْ مَثنويَّةٌ ... لنا غَيْرُ طَعْنٍ بالْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ
وضَرْبٍ بِبِيضٍ يَخْتَلي الْهَامَ حَدُّهَا ... مُشَهَّرَةِ الألوانِ بَيِّنَةِ الأُثْرِ

ولأوَّل مَرَّةٍ يفخر شاعرٌ بجنود الله وإمداد الله لهم بالملائكة ليحاربوا الكفار، حيث قال حمزة في القصيدة نفسها:

فكانُوا غَدَاةَ البِئْرِ ألْفًا وجَمْعُنَا ... ثَلاثُ مِئِينٍ كالْمُسَدَّمةِ الزُّهْرِ
وفِينَا جُنُودُ اللهِ حِينَ يُمِدُّنا ... بِهِمْ في مَقَامٍ ثَمَّ مُسْتَوْضَحِ الذِّكْرِ
فَشَدَّ بِهِمْ جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا ... لَدَى مَأزِقٍ فيهِ مَنَايَاهُمُ تَجْرِي

---

[1] القصيدة رقم (8) من مجموع شعر حمزة بن عبد المطلب.

[2] القصيدة رقم (7) من شعر حمزة بن عبد المطلب.

لقد كان حمزةُ بن عبد المطلب، على قمة القوة الحربية للمسلمين، يستمد تعليماته من الرسول صلى الله عليه وسلم، ويُدِير المعارك ضد الكفار، وكان منقطِعًا للعمل الحربي، وهو يفخر بأنه لا يملك من حطام الدنيا غير فرسه وسيفه والخصال المحمودة للمحاربين، وأنَّ هذا هو ما سيتركه بعد مماته، قائلاً([1]):

لَيسَ عِنْدِي إلاَّ سِلاحٌ ووَرْدٌ ... قَارِحٌ مِنْ بَنَاتِ ذِي العُقَّالِ
أتَّقِي دُونَهُ الْحُرُوبَ بِنَفْسِي ... وَهْوَ دُونِي يَغْشَى صُدُورَ العَوَالي
جُرْشُعٌ ما أصَابَتِ الْحَرْبُ مِنْهُ ... حِينَ تَحْمَى أبطالُهَا لا يُبَالي
وطَرِيرٌ، كأنَّهُ قَرْنُ ثَوْرٍ ... ذَاكَ لا غَيْرَ ذَاكُمُ جُلُّ مَالي
فإذَا ما هَلَكْتُ كَانَ تُرَاثِي ... وسِجَالاً مَحْمُودَةً مِنْ سِجَالي

وقد افتخَرَ جعفرُ بن أبي طالب، بنفسه وبانتسابه إلى سادات فهر، وبسيفه الغَمام، وهو يضرب به في مؤتة، قائلاً([2]):

قَدْ عَلِمَتْ فِهْرٌ وفِهْرٌ حَاكِمَهْ
أنِّيَ مِنْهَا في الذُّرَا والْغَلْصَمَهْ
كَمْ قَطّ مِنْ شَاكِلةٍ وجُمْجُمَهْ

ولِصَفية بنتِ عبد المطلب، في الإسلام، فخْرٌ بتقاليد جاهلية، لكنه كان مقصودًا به التحريضُ لضرب المشركين بعضهم ببعض. فبَعد أن انقضى يومُ بدر وأصِيبَ مِن المشركين مَنْ أصِيب، قَتَلَ هشامُ بنُ الوليد بن المغيرة أبا أُزَيْهِر الدَّوسي بِذِي المجاز، فاجتمع الناسُ وتهيَّئوا للقتال، فجاء أبو سفيان بنُ حَرْبٍ فقال: ما أسرع الناسَ إلى دماء هذا الحيِّ من قريش! وقال لأصحابه: لا تشاغلوا بالحرب بينكم عن حرب محمَّد، يريد النبي صلى الله عليه وسلم. وكان العربُ إذا غدَرَ الرجُل أوْقدوا له نارًا على الجبل

([1]) القطعة رقم (11) من شعر حمزة بن عبد المطلب.

([2]) القطعة رقم (10) من شعر جعفر بن أبي طالب.

الْمُطِلِّ على مِنًى، وقيل هذه غَدْرَةُ فلان، فلما قُتِلَ أبو أزيهر– وهو صِهْرُ أبي سفيان فلم يأخذ بثأره– أوقدت النارُ على أبي قُبَيْس بموسم الحج، وقيل هذه غَدْرةُ أبي سفيان. وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: "حَرِّضْ أبا سفيان في دَمِ ابْنِ أزيهِر"، وإنما أراد صلى الله عليه وسلم أن يهزَّه الشِّعرُ على عادة العرب؛ فيتشاغل عن حربه بحرب بني مخزوم، ويقع الخلافُ بينهم، فقال حسانُ بْنُ ثابت قطعتين؛ يُعَيِّر فيهما أبا سفيان([1]). وقالت صفيةُ بنتُ عبد المطلب– أيضًا– تُحَرِّضُ أبا سُفيان على أخْذِ ثأر أبي أزيهر، مِنْ بني مخزوم، وتُعَرِّضُ له بالنار التي أوقدَتْ له بالغَدْر([2]):

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي قُرَيْشًا فَفِيمَ الأمْرُ فِينَا والإمَارُ
لَنَا السَّلَفُ الْمُقَدَّمُ قَدْ عَلِمْتُمْ وَلَمْ تُوقَدْ لَنَا بِالْغَدْرِ نَارُ
وَكُلُّ مناقِبِ الْخَيْرَاتِ فِينَا وبَعْضُ الأمْرِ مَنْقَصَةٌ وَعَارُ
وسَائِلْ في جُمُوعِ بَنِي عَلِيٍّ إذَا كَثُرَ التَّنَاشُدُ والْفَخَارُ
فإنَّا لا نُقِرُّ الضَّيْمَ فِينَا ونَحْنُ لِمَنْ تَوَسَّمَنَا نُضَارُ

ولأنَّ أبا سفيان بن الحارث تأخَّرَ إسلامُه، إلى قبيل فتح مكة، فقد كان يفخَرُ على المسلمين قبل إسلامه، فقال في الافتخار بتخويف المسلمين في غزوة الأحزاب (الخندق)، ورَمْي السِّهام والرِّماح على المسلمين، حتى جُرِحَ سعدُ بنُ مُعاذ، فقال أبو سفيان([3]):

نَحْنُ وَرَدْنَا بَطْنَ سَلْعٍ عَلَيْكُمُ بِأسْيَافِنَا والْخَيْلُ تَدْمَى نُحُورُهَا
تَرَكْنَا بَنِي النَّجَّارِ تَعْوِي كِلابُهُمْ غَدَاةَ تَوَلَّتْ وَاسْتَمَرَّ مَرِيرُهَا
ونَحْنُ تَرَكْنَا الْخَزْرَجِيَّ مُجَدَّلاً تَمُجُّ حَيَاةَ النَّفْسِ مِنْهُ زَفِيرُهَا
تَرَكْنَاهُ لَمَّا غَادَرَتْهُ رِمَاحُنَا ولَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ عَيْنٍ يُدِيرُهَا

([1]) هما قطعتان برقمي (192 و200) من ديوان حسان ط. وليد عرفات جـ1– ص362 و372.

([2]) القصيدة رقم (15) من شعر صفية بنت عبد المطلب، حيث ذكرت مناسبة القصيدة.

([3]) القصيدة رقم (7) من مجموع شعر أبي سفيان بن الحارث.

ولأبي سفيان أبياتٌ في الفخْرِ على قريش، بأنه وذويه أجودُ حِصانًا، وأكثرهم دروعًا، وأكثر مهارة في القتال، وأفصحهم. ولم تفصح الرواية عن وقت أو مناسبة هذه الأبيات، إلاَّ أننا نُرَجِّح أنه قالها بعد إسلامه، حيث لا يُمكن تصوُّر أنه كان يفخر عليهم وهو معهم قبل إسلامه، يقول([1]):

لَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ غَيْرَ فَخْرٍ بأنَّا نحنُ أجْوَدُهُمْ حِصَانَا
وأكْثَرُهُمْ دُرُوعًا سَابِغَاتٍ وأمْضَاهُمْ إذَا طَعَنُوا سِنَانَا
وأدْفَعُهُمْ عَنِ الضَّرَّاءِ مِنْهُمْ وأبْيَنُهُمْ إذَا نَطَقُوا لِسَانَا

ولَمَّا أسلَم أبو سفيان بنُ الحارث، اندرج في صفوف المسلمين، بل كان في طليعة المتصَدِّين للدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكان أحد القليلين الذين ثبتوا أمام النبي صلى الله عليه وسلم في حنين، حين انكشف عنه الناس. وقال أبو سفيان بن الحارث، في يوم حُنَيْنٍ، مفتخِرًا بثباته أمام النبي صلى الله عليه وسلم، فيمن ثبَتَ من أهل بيته([2]):

لَقَدْ عَلِمَتْ أفْنَاءُ كَعْبٍ وعامرٍ غَدَاةَ حُنَيْنٍ حِينَ عَمَّ التَّضَعْضُعُ
بِأنِّي أخُو الْهَيْجَاءِ أرْكَبُ حَدَّهَا أمَامَ رَسُولِ اللهِ لا أتَتَعْتَعُ
رَجَاءَ ثَوَابِ اللهِ واللهُ وَاسِعٌ إلَيْهِ تَعَالَى كُلُّ أمْرٍ سَيَرْجِعُ

ومن فخره– أيضًا– بثباته في حنين، قوله([3]):

إنَّ ابْنَ عَمِّ الْمَرْءِ مِنْ أعْمَامِهْ
بَنُو أبِيهِ الْيَوْمَ مِنْ أمَامِهْ
ومِنْ حَوَالَيْهِ ومِنْ أهْضَامِهْ

([1]) القطعة رقم (18) من مجموع شعر أبي سفيان بن الحارث.
([2]) القطعة رقم (9) من مجموع شعر أبي سفيان بن الحارث.
([3]) القطعة رقم (17) من مجموع شعر أبي سفيان بن الحارث.

فـــإنَّ هَـــذَا الْيَـــوْمَ مِـــنْ أيَّامِـــهْ
فَقَـــاتَلَ الْمُسْـــلِمُ عَـــنْ إسْـــلامِهْ
وَقَـــاتَلَ الْحَـــرْمِيُّ عَـــنْ إحْرَامِـــهْ

وقد ثبتَ العَبَّاسُ بنُ عبد المطلب– أيضًا– في حنين، وافتخَرَ بثباته في أعنف المواقف، حيث كان يَرُدُّ الخيل المغيرة بقوسه، وذلك في قصيدة يقول فيها:

ألا هَـلْ أتَـى عِـرْسِي مَكَـرِّي ومَـوْقِفِي بِـوَادِي حُنَـيْنٍ والأسِـنَّةُ تُشْـرَعُ
وَقَوْلِي إذَا ما النَّفْسُ جَاشَتْ، لَهَا: قِرِي وَهَـامٌ تُدَهْـدَى والسَّـوَاعِدُ تُقْطَـعُ
وكيـفَ رَدَدْتُ الْخَيْـلَ وَهْـيَ مُغِـيرَةٌ بِـزَوْرَاءَ تُعْطِـي باليَـدَيْنِ وتَمْنَـعُ

ويقول فيها:

نَصَـرْنا رَسُـولَ اللهِ فـي الْحَـرْبِ تِسْـعَةً وقَـدْ فَـرَّ مَـنْ قَـدْ فَـرَّ عَنْـهُ فأقْشَـعُوا
... ...
وعَاشِـرُنا لاقَـى الْحِمَـامَ بِنَفْسِـهِ بِمَـا مَسَّـهُ فـي اللهِ، لا يَـتَوَجَّعُ

وكان عُمرُ بنُ الخطاب قد استسقى بالعباس عَمِّ النبي صلى الله عليه وسلم، في عام الرمادة، فسُقِيَ المسلمون، وقال العباسُ بنُ عتبة بن أبي لهب، يذكر ذلك مفتخِرًا، كما افتخَرَ بميراث بني هاشم بركات النبي صلى الله عليه وسلم([1]):

بِعَـمِّي سَـقَى اللهُ الْحِجَـازَ وأهْـلَهُ عَشِـيَّةَ يَسْـتَسْقِي بِشَـيْبَتِهِ عُـمَرْ
تَوَجَّـهَ بِالعَبَّـاسِ فـي الْجَـدْبِ رَاغِبًـا إلَيْـهِ، فَمَـا إنْ رَامَ حتى أتَـى الْمَطَرْ
وَمِنَّـا رَسُـولُ اللـهِ، فينـا تُرَاثُـهُ فَهَـلْ فَـوْقَ هـذَا لِلْمُفـاخِرِ مُفْتَخَرْ

([1]) القطعة الوحيدة للعباس بن عتبة بن أبي لهب، في قسم الجمع من هذا الكتاب.

وقد دخل الفضلُ بنُ العباسِ مصر، في أثناء فتحها، وحارَب في فتح البهنسا، وبعد حصار للمدينة دَامَ ثلاث سنوات والحيلولة دون الدخول، فقال الفضلُ بنُ العباس وهو يدخل([1]):

ألا إننــا الســاداتُ مِــنْ آلِ هَاشِــمٍ   لُيــُوثًا ذَوِي بَطْــشٍ شَــدِيدِ العَــزَائِمِ
لَنَـا تَشْــهَدُ الأبطـالُ فـي كُـلِّ معْـرَكٍ   وتــذكُر عَنَّــا أهــلُ كــلِّ الْمَوَاسِــمِ
إذا اشْـتَدَّتِ الأهـوالُ واسْـتَبَقَ القَنَـا   رَأَيْـتَ لنـا فـي ذَاكَ فِعْـلَ الضَّــرَاغِمِ

فكان الفخرُ في شعر الحربِ مُوجِعًا، وكان هذا الشعرُ المصاحِبُ للحرب مُعِينًا لتعبئة الجنود، حيث كانت المهام صعبة، وكان لابد من اتخاذ شعر الفَخْر وسيلة لتهيئة النفس لملاقاة الأهوال.

وهكذا يتبيَّن أنَّ كثيرًا من الفَخْر الإسلامي كان له وظيفة، بل وظائف، فقد كان في الحرب لإخافة الخصم، أو لتهيئة النفس للقاء الأهوال والشدائد. كما ظهر الفَخْرُ التحريضي، ليهتزَّ له العدو لفعل شيء يتمنى الشاعرُ فعله، كما كان لتسجيل مبادئ جديدة وإرسائها، مثل الذي قام به حمزةُ بن عبد المطلب مِنْ توجيه الفخر وجهة إسلامية، للفخر بالدين الحنيف، وبآيات الله التي تُبْكِي المؤمنين من الخشية، وبملائكة الله الذين يُعينون المؤمنين على النُّصرة.

ثانيًا– المدح

لأنَّ بني هاشم من الممدوحين، لا نجد لهم مدحًا لأحدٍ من غير بني هاشم، فالمدح المجموع في هذه الرسالة لا يزيد على مدح النبي صلى الله عليه وسلم، إلا قليلاً، فلنفرغ من هذا القليل أولاً لننتقل إلى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، قبل النبوة وبعدها.

([1]) القطعة رقم (8) من مجموع شعر الفضل بن العباس بن عبد المطلب.

أ- مدح الأنصار:

كان عَمْرُو بنُ العاص في يوم السقيفة قد خطب خُطبةً هجا فيها الأنصار، فرَدَّ عليه الفضلُ بن العَبَّاس، يمدح الأنصار، قائلاً([1]):

إنَّـــما الأنصَـــارُ سَـــيْفٌ قَاطِـــعٌ مَـــنْ تُصِـــبْهُ ظُبَـــةُ السَّـــيْفِ هَلَـــكْ
وَسُـــــيُوفٌ قَاطِـــــعٌ مَضْرِبُـــــهَا وسِـــهَامُ اللهِ فـــي يَـــوْمِ الْحَلَـــكْ
نَصَـــــرُوا الدِّيـــــنَ وَآوَوْا أَهْلَـــــهُ مَنْـــــزِلٌ رَحْـــــبٌ وَرِزْقٌ مُشْـــــتَرَكْ
وَإِذَا الْحَـــــرْبُ تَـــــلَظَّتْ نَـــــارُهَا بَـــرَكُوا فِيـــهَا إِذَا الْمَـــوتُ بَـــرَكْ

ولاشك أنه مديحٌ مُنصِفٌ للأنصار، بل إنَّ الأبيات تُشير وتُلَخِّص مواقفهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع المهاجرين، وتذكر نُصْرتهم للدِّين.

ب- مدح النبيِّ صلى الله عليه وسلم:

لم يبدأ مدحُ النبي صلى الله عليه وسلم بعد بعثته وتصديق المؤمنين له، فإن بعض النصوص التي ضمَّها هذا الكتاب تتضمَّن مدحًا له قبل البعثة، حيث كانت دلائلُ نبوته تتوالى وبركاته يتناقلها مَن يعرفه، وكانت شمائله وحُسْنه وطباعه مثار إعجاب أهله، فمنهم مَنْ مَدَحَهُ قبل النبوة ومنهم من مدحه بعدها، ومنهم من مدحه قبل النبوة واستمرَّ مديحه له بعدها.

1- مدح النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة:

كانت بركاتُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم تتوالى، منذ كان في ظهور آبائه، حتى ولدته أمه آمنة بنتُ وَهب، وظهرت أنوارُه. وقد أخذته حليمة السعدية لإرضاعه، ورأت بركاته كما هو معلوم. وكلها أحداث مذكورة في كثير من الأشعار، ولكنَّ أشعار الهاشميين- التي هي محل دراستنا- ورد فيها كثير من المدح له صلى الله عليه وسلم، ومنه ما قيل قبل بعثته، بل منذ كان غلامًا في السابعة، حين حمله جدُّه عبدُ المطلب (واسمه شيبة

([1]) انظر القطعة رقم (6) من مجموع شعر الفضل بن العباس بن عبد المطلب.

الحمد) على عاتقه وخرج مع رجال قريش ليستسقي به، فسُقِي، وهو ما قَصَّتْهُ رُقيقة بنتُ أبي صيفي في خبرها وذكرته في شعرها، ومدَحَت النبيَّ الذي بُشِّرَتْ به مُضَر، والذي سُقُوا به، حيث قالت[1]:

بِشَـــيْبَةِ الْحَـــمْدِ أسْـــقَى اللهُ بَـــلْدَتَنَا وقَـــدْ فَقَـــدْنَا الْحَيـــا واجْـــلَوَّذَ الْمَطَـــرُ
فجَـــادَ بِالْمَـــاءِ جَـــوْنِيٌّ لَـــهُ سَـــبَلٌ دَانٍ فَعَاشَـــتْ بِـــهِ الأنْعَـــامُ والشَّجَـــرُ
مَنَّـــا مِـــنَ اللهِ بِالْمَيْـــمُونِ طائِـــرُهُ وخَـــيْرِ مَـــنْ بُشِّـــرَتْ يَوْمًـــا بِـــهِ مُضَـــرُ
مُبَـــارَكِ الأمْـــرِ يُسْـــتَسْقَى الغَمَـــامُ بِـــهِ مَـــا فـــي الأنَـــامِ لَـــهُ عِـــدْلٌ ولا خَطَـــرُ

وحين خرَجَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم إلى الشام مُتاجِرًا بأموال خديجة قبل البعثة، بل قبل زواجه منها، خَرَجَ معه بعضُ أعمامه: الزبير والعباس وحمزة، وفي هذا السفر مَدَحه العباسُ وحمزة. فهذا عَمُّه حمزة يمدحه صلى الله عليه وسلم، ذاكرًا سفره إلى الشام، بأموال السيدة خديجة وما حدث في هذه السفرة من كرامات، وذاكرًا بعض ما حلَّ بحليمة من بركاته صلى الله عليه وسلم[2]:

أنـتَ الْمُظَلَّـلُ بالغَمَـامِ وقَـدْ رَأى الـ ـرُّهبان أنَّـكَ ذَاكَ وانكشَـفَ الْخَبَـرْ
رُبِّيـتَ فـي بُحْبُـوحِ مَكَّـةَ بَعْـدَ مـا وَضَعَ الْخَلِيلُ، وَفَاقَ فَخْرُكَ مَنْ فَخَرْ
ورَضَـعْتَ فـي سَـعْدٍ لِثَـدْيِ حَلِيمَـةٍ كَرَمًا، ففاضَ الثَّدْيُ نَحْوَكَ وانْحَدَرْ

وقد اختلف القرشيون في تأمير النبي صلى الله عليه وسلم، عليهم في سفرهم إلى الشام، مع أنه معروفٌ لديهم بأنه النبيُّ المنتظَر، فذكر حمزةُ اختلافهم وما ظهَرَ للقرشيين من بركاته صلى الله عليه وسلم، وما حدث لبعضهم من سوء؛ لعدم اتباعهم إرشاداته، كما ذكر مكانته عند الله قائلاً[3]:

يـا حَاسِـدِينَ تَمَزَّقـوا فـي غَـيْظِكُمْ حَسَـدًا يُمَـزِّقُ مِـنْكُمُ الأكْبَـادَا

---

[1] القطعة رقم (2) من مجموع شعر رقيقة بنت أبي صيفي.
[2] القطعة رقم (5) من مجموع شعر حمزة بن عبد المطلب.
[3] القطعة رقم (3) من مجموع شعر حمزة.

فـــاللهُ فَضَّـــلَ أحمـــدًا واخْتَـــارَهُ وبِمَـــكَّةٍ جَمَـــعَ الْـــوَرَى وبِـــلادَا
ولَيَـــمْلأنَّ الأرْضَ مِـــنْ إيمانِـــهِ ولَيَهْـدِيَنَّ عـن الغَـوَى مَـنْ حَـادَا

لقد أبَى أبو جهل تأمير النبي صلى الله عليه وسلم، وعابَهُ بأنه يتيم، فردَّ عليه العَبَّاسُ قائلاً([1]):

ألا أيُّهـــا الوَغْـــدُ الَّـــذِي رَامَ ثَلْبَـــنَا أتَثْـلِبُ قَرْمًـا فـي الرِّجَـالِ كريمَـا
أتثلبُ– يا وَيْكَ– الكريمَ أخَا التُّقَى حَبِيبًـــا لِـــرَبِّ العَـــالَمِينَ عَظِيمَـــا

وبعد رُجُوعِهم من الشام، وتنفيذًا لاخْتِيَار الله لنبيِّه صلى الله عليه وسلم، كان الزواجُ من خديجة بنت خويلد، وقد كانت بينهم مصاهراتٌ من قبل، فقد كانت خالدةُ بنتُ هاشم زوجًا لأسد بن عبد العُزَّى جَدّ خديجة وإن لم تكن خالدةُ جدتها([2]). كما كان العَوَّامُ بن خويلد– أخو خديجة– زوجًا لصفية بنت عبد المطلب، وقُتِلَ العَوَّامُ في حرب الفجار، قبل زواج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة بخمسة أعوام، فخديجةُ أختُ زوج صفية، وقد قامت صفيةُ بدور في هذا الزواج المبارك، بل قالت لخديجة في خِطبتها، تمدح النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وتذكر محاسنه وجماله([3]):

اللـــهُ أكْـــبَرُ كُـــلُّ الْحُسْـــنِ فـــي الْعَـــرَبِ كَـــمْ تَحْتَ غُرَّةِ هَذَا الْبَدْرِ مِنْ عَجَبِ
قَـــوَامُهُ ثُـــمَّ إنْ مَـــالَتْ ذَوائِبُـــهُ مِـــنْ خَلْفِـــهِ فَـــهْيَ تُغْنِيـــهِ عَـــنِ الأدَبِ
تَبَّـــتْ يَـــدَا لائِمِـــي فِيـــهِ وحَاسِـــدِهِ ولَـــيْسَ لِـــي فـــي سِـــوَاهُ قَـــطُّ مِـــنْ أرَبِ

لقد ابتهجت الدنيا بهذا الزواج المبارك، فقد كانت دلائلُ نبوته صلى الله عليه وسلم قد انتشرت في الأقطار، فصار أهلُ بيته يُصلُّون ويُسلِّمون عليه، صلى الله عليه وسلم، قبل البعثة، لأنه النبيُّ المنتظَر، فقال العباسُ بن عبد المطلب، في هذا الزواج([4]):

([1]) القطعة رقم (17) من مجموع شعر العباس بن عبد المطلب.
([2]) لأسد بن عبد العزى زوجتان: خالدة بنت هاشم وهي جدة ورقة بن نوفل، والثانية زُهْرة بنت عمرو الكاهلية، وهي جدة خديجة.
([3]) القطعة رقم (3) من مجموع شعر صفية بنت عبد المطلب.
([4]) القصيدة رقم (1) من مجموع شعر العباس.

قـــدْ فَخَـــرْتُمْ بأحْمَـــدٍ زَيْـــنِ كُـــلِّ الأطـــايِبِ
فَهْـــوَ كالبَـــدْرِ نُـــورُهُ طَـــالِعٌ غَـــيْرُ غـــائبِ
قـــدْ ظَفِـــرْتِ خَدِيـــجَةٌ بِجَـــلِيلِ الْمَـــوَاهبِ
بِفَـــتَى هاشِـــمٍ الـــذِي مـــا لَـــهُ مِـــنْ مُناسِـــبِ
جَمَـــعَ اللهُ شَـــمْلَكُمْ فَهْـــوَ رَبُّ الْمَطَالِـــبِ
أحْمَـــدٌ سَـــيِّدُ الْـــوَرَى خَـــيْرُ مَـــاشٍ ورَاكِـــبِ
فَعَلَيْـــهِ الصَّـــلاةُ مَـــا سَـــارَ عِـــيسٌ بِـــرَاكِبِ

وقد شاركتْ فاطمةُ بنتُ أسَدِ بن هاشم، مع عَمَّاته في زفاف خديجة إليه صلى الله عليه وسلم، فكانت البشرى بنبوَّته حديث فاطمة، حيث تقول([1]):

لقـــد عَلَـــوْتِ خَـــدِيجَ فـــي ذُرَا شَـــرَفٍ حتـــى ارْتَقَيْـــتِ مِـــنَ العَلْيَـــا مَرَاقِيـــهَا
بِالسَّيِّدِ الطَّاهِرِ الْمَبعُوثِ في صُحُفِ الـ ـرُّهبانِ، لا شَـكَّ، والأنبـاءُ تُنْبِيـهَا

وقد مَدَحته في هذا الزفاف عَمَّاتُه: أميمة، وبرَّة، والبيضاء أم حكيم، وصفية، وعاتكة، مما سيأتي ذِكْرُه في المبحث المخصص للتهاني.

لكنَّ عَمَّته عاتكة تعترف بالعَجْز عن مدحه، بل بعجز كُلِّ لسان، وهي في زفاف السيدة خديجة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فجعلت تُنْشِدُ قائلة([2]):

أضْـــحَى الْفَخـــارُ لَنَـــا وَعِـــزٌّ شـــامِخٌ ولَقَـــدْ فَخَـــرْنَا بالنَّـــبِي العَدْنَـــانِي
نِلْـــتَ العُـــلا فِينـــا وتَعْـــلُو فـــي الـــوَرَى وتَقَاصَـــرَتْ عَـــنْ مَجْـــدِكَ الثَّقَـــلانِ
أعْـــنِي مُحَـــمَّدًا الَّـــذِي لا مِثْلَـــهُ وَلَـــدَ النِّسَـــا فـــي ســـائِرِ الأزْمـــانِ
فـــلَهُ الْمَكـــارِمُ والْمَفـــاخِرُ والْعُـــلا عَـــنْ مَـــدْحِهِ قـــد كَـــلَّ كُـــلُّ لِســـانِ

([1]) القطعة رقم (3) من مجموع شعر فاطمة بنت أسد.

([2]) القطعة رقم (8) من مجموع شعر عاتكة، في هذا الكتاب.

ففي عَجُز البيت الأخير عَبَّرَتْ عن المدح بطريقة العجز عن المدح، وهي طريقةٌ في المدح، حيث قال بعضهم: "إذا اعترف المادِحُ بالعَجْز عن الثناء فقد أتى بالمدح"([1]).

2- مدح النبي صلى الله عليه وسلم بعد النبوة:

لا يستطيع أحَدٌ أن يُوَفِّي الرسول حَقَّهُ من الوصف، أو يُحْصِي محاسنه، فسيظل أحسن من المحاسن، وأجمل من الجمال، وأكمل من الكمالات، وأسمى من تصورات البشر. لكنَّ الصحابة الكرام أسَّسُوا لفنِّ المديح النبوي، وكان بعضُهم يحاول أن يمدحه بالتقاليد الشعرية القديمة، فمدحَهُ بعضُهم بالكرم والجود والسيادة والشجاعة، في حين أنَّ كل هذه الصفات تَقْصُر عنه صلى الله عليه وسلم. وقد تناوَل د. أحمد النجار المديحَ النبويَّ للصحابة، فلاحَظَ وجود بعض أساليب المديح المطروقة من قبل، عند أبي طالب، وكعب بن مالك، وقيس بن بحر، وحسان بن ثابت، فهُم "لا يزالون يُجْرُون صفاتٍ تقليدية في مديح السادة والأشراف من قبل، لذا مدحوا الرسول بكرَم العُنصُر وطِيب الأصْل وأصالة العِرْق في الحسب الكريم"([2])، كما لاحَظ أنهم مدحوه بأنه خيرُ الناس وأفضلُ مَنْ سعَى على قدم، وخير مَنْ وَطِئ التراب، إلى غير ذلك، لكنَّ الشعراء كانوا من قبل يستخدمون هذه الألفاظ نفاقًا أو تملُّقًا، أمَّا في حالة مدح النبي صلى الله عليه وسلم، فإنهم "يعتقدون حقًّا أنَّ مدائحهم بتلك الصفات تعبيرٌ عن واقع ثابت تؤيده حقيقة الاعتقاد بأنه نبيُّ الله ورسوله ومصطفاه، وأنه أشرف الخلق وسيد المرسلين"([3]). ووصفوه بأنه الشهاب والبدر، اعترافًا منهم بفضل هدايتهم إلى طريق الرشاد وإخراجهم من الظلمات إلى النور([4]).

([1]) المقصد الأسنى، للديربني، ص134.

([2]) مضمون المدحة النبوية زمن البعثة د. أحمد النجار ص183.

([3]) السابق ص183 و184.

([4]) السابق ص181.

ومَدَحَهُ أهل بيته بجوامع الصفات، ولكنَّ أهم ما يُميِّز مديح أهل بيته له، أنهم كانوا يؤسسون لمديحه من خلال الحديث عن النور المحمدي، الذي هو سبب وجود الدنيا كلها وكان هو نورَها.

لقد مَدَحته عَمَّتُه عاتكة وهي تذكر غزوة بدر، ومَدَحه عمُّه حمزة وهو يذكر اعتزازه بإسلامه، أو حين يهجو الكفار ويمدحه صلى الله عليه وسلم، ومَدَحه عمُّه أبو طالب، وابنُ عمِّه طالبُ بن أبي طالب، وابنُ عمِّه أبو سفيان بنُ الحارث. لكنَّ مديح عَمِّه العباس كان أساسًا لفن المديح النبوي الذي لا ينتهي على مدى الأزمان، بل إن للعباس قصائد خالصة للمديح فقط.

يفتتح العباس بن عبد المطلب إحدى قصائده الخالصة للمديح النبوي بقوله([1]):

يـا قَاصِـدًا نَحْـوَ الْحَطِـيمِ وزَمْـزَمِ بَلِّـغْ فَضَـائِلَ أحْمَـدَ الْمُتكـرِّمِ
واشْرَحْ لَهُمْ ما عَايَنَتْ عَيْنَاكَ مِنْ فَضْلٍ لأحْمَدَ والسَّحَابِ الْمُرْكَمِ
قدْ بانَتِ الآياتُ في السَّيْلِ الَّذِي مَـلأ الْفِجَـاجَ بِسَـيْلِهِ الْمُتَـرَاكِمِ

فقد ذكر حادثة الاستسقاء بالنبي صلى الله عليه وسلم، كما ذكر بعد ذلك حوادث أخرى، من بركاته صلى الله عليه وسلم، وختم قصيدته بقوله:

وَبِـهِ تَوَسَّـلَ فِـي الْخَطِيئَـةِ آدَمٌ فَلْيَـعْلَمِ الأخْبَارَ مَـنْ لـم يَعْـلَمِ

فلقد وردتْ بعض الأخبار التي تؤكد أن آدم توسل إلى الله تعالى، بالنبي صلى الله عليه وسلم، ذكرتُها في شرح هذا البيت، في قسم الجمع، وهنا أريد تأكيد أنَّ هذا النوع من المديح النبويِّ الخالص أسَّسه العباسُ بن عبد المطلب.

ومن أهَمِّ قصائد المديح النبوي، قصيدتُه التي ورد استئذانه النبي صلى الله عليه وسلم، مُنصرَفَهُ من تبوك، في أن يمدحه، فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم. فذكر العباسُ في قصيدته أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان مستودَعًا في ظهر آدم عليه

([1]) القصيدة رقم (18) من مجموع شعر العباس بن عبد المطلب.

السلام، وهو في ظلال الجنة، ثم هبط إلى الأرض وهو في ظهره، فكان في ظَهْر سام بن نوح عليه السلام حين ركب السفينة، فكانت النجاة، وأنه كان في صُلْب إبراهيم الخليل عليه السلام حين وُضِعَ في النار، فلم يحترق، لأنه النبي الذي سيأتي ويُضيء الكون[1]، فقال العباس[2]:

مِنْ قَبْلِهَا طِبْتَ في الظِّلالِ، وفي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الْوَرَقُ
ثُمَّ هَبَطْتَ الْبِلادَ، لا بَشَرٌ أنْتَ، ولا مُضْغَةٌ، ولا عَلَقُ
بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينَ وقَدْ أَلْجَمَ نَسْرًا وأَهْلَهُ الْغَرَقُ
تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إلى رَحِمٍ إذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ
وَرَدْتَ نَارَ الْخَلِيلِ مُكْتَتَمًا في صُلْبِهِ أنْتَ، كَيْفَ يَحْتَرِقُ!

حتى صارتْ حقيقتُه ظاهرةً، فهو النور الذي نعيش به وفيه، وقال العباسُ في قصيدته:

وأنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أشْرَقَتِ الْـ أرْضُ وضَاءَتْ بِنُورِكَ الأفُقُ
فَنَحْنُ في ذَلِكَ الضِّياءِ وفي النـ ـنُّورِ وسُبْلِ الرَّشَادِ نَخْتَرِقُ

فلقد ذكر مَادِحُوه صفاته الجمالية، من جمال الصورة وجمال الشمائل، ودلالات نبوته قبل البعثة، وكراماته ومعجزاته بعدها، ثم جاءت قصيدة العباس لتُفصِحَ عن سبب نجاة الأنبياء والرسل السابقين عليهم السلام، حتى ظهرت أنوارُه صلى الله عليه وسلم وعَمَّت الأكوان.

ويرى د. علي صافي حسين، أنَّ العباس في أبيات هذه القصيدة "يُصَوِّرُ لنا النبيَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم، على أنه لم يكن من طبيعة البَشَر، أي أنه لم يُخْلَقْ من ماء وطين كغيره من أفراد بني الإنسان، وإنما هو حقيقة رُوحيَّة، أو ذَاتٌ نُورَانيَّة، كانت تحيا قبل هذا الوجود الحسّي في عالَم الْمَلَكُوت، ثم حَلَّ في آدَم وقت أن أُسْكِنَ الجنة، فلَمَّا عَصَى آدَمُ رَبَّهُ بِأَكْلِه من الشجرة التي نهاه الله عنها، هبط إلى الأرض- كما أخبر بذلك القرآنُ وغيرُه من الكتب السماوية- حَلَّتْ في صُلبه الذاتُ المحمدية ثم

([1]) كانت تلك الحادثة قبل أن ينجب إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل.

([2]) القصيدة رقم (10) من مجموع شعر العباس بن عبد المطلب.

انتقلت منه إلى نُوح، وظلت تنتقل بعدُ من نبي إلى نبي، حتى ظهرت في شخص إبراهيم الخليل، ويقول العباس إن محمدًا هو سبب نجاة نوح من الطوفان، وسلامة إبراهيم من النيران، ثم يقول العباس- بعد ذلك كله- إن تلك الحقيقةَ الروحية أو هاتيك الذاتَ النورانية قد ظهرت بأوضَح صُوَرها وأجْلَى معانيها في شخص محمد بن عبد الله حين ولدته آمنة بنت وهب في مكة المكرمة، حيث أشرقت الأرض وأضاءت بنوره الآفاق"([1]).

ومع أنَّ أحدًا لا يعرفُ سببًا لقصيدة العباس الأخيرة، حيث إنه استأذَن الرسولَ صلى الله عليه وسلم، أن يمدحه، فأذِنَ له، وهذا أقصى ما رواه رواةُ الحديث، فإنَّ د. علي صافي حسين، يرى "أنَّ العَبَّاسَ بن عبد المطلب قد أراد من قصيدته هذه أن يحملَ السامعين أو المخاطبين على اعتناق الإسلام من ناحية، والإيمان بأفضلية محمد صلى الله عليه وسلم، على كل الأنبياء، وأن رسالته أسمى وأشمل من كل الرسالات، من ناحية أخرى"([2]). ولأننا لا ندري عن السامعين شيئًا غير النبي صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه، فإننا لا يمكن أن نتكهَّن بالهدف من القصيدة، فربما كان الهدف من القصيدة هو مدح النبي صلى الله عليه وسلم مدحًا خالصًا فقط؛ تقرُّبًا إلى الله بذلك. فالصلاة والتسليم عليه مفروضان على جميع المؤمنين في كتاب الله، والذي يفعل ذلك لا هدف له إلا التقرب إلى الله بهذا الفعل. ولا يبدو في هذا المديح غيرُ إعلانه عن فهمه للحقيقة المحمدية، وللنور المحمدي، وأنه يتقرَّب بمدحه إلى الله ورسوله.

ويرى د. هدارة أن في المدائح النبوية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، تطورًا في أسلوب المديح، من ناحية رقة اللفظ والاهتمام بالفكرة، بالإضافة إلى الاتجاه الإسلامي([3]).

([1]) المديح النبوي في القرن الأول الهجري، د. علي صافي حسين ص127 و128.

([2]) السابق ص71.

([3]) الشعر العربي في القرن الأول الهجري- د. محمد مصطفى هدارة ص92.

ثالثًا– الرثاء

كثر شعرُ المراثي عند بني هاشم، حتى احتلَّ مرتبةً متقدِّمةً بين الأغراض الشعرية، كما كان مُعْظَمُ أصحابِ المراثي– لا كلهم– من النساء. وهو ما يجعل المراثي أشْجَى، ولعله من المناسب الاستئناس بما قاله ابن رشيق: "والنساءُ أشْجَى الناسِ قلوبًا عند المصيبة، وأشَدُّ جَزَعًا على هالِك، لِمَا رَكَّبَ الله عَزَّ وجَلَّ في طباعِهِنَّ من الْخَوَر وضَعْفِ العَزيمة".

وبعد أن أورد ابنُ رشيق شعر الكميت في رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي عِيبَ على الكميت، قال: فهلاَّ قال مِثْلَ فاطمة رضي الله عنها[1]:

اغْبَـرَّ آفـاقُ السَّـماءِ وكُـوِّرَتْ شمسُ النهارِ وأظْلَمَ العَصْرَانِ
فـالأرضُ مِـنْ بَعْـدِ النـبِيِّ كئيبـةٌ أسَـفًا عَليْـهِ كثيـرةُ الرَّجَفـانِ
فلْيَبْكِـهِ شَـرْقُ الـبِلادِ وغَرْبُهَـا ولْيَبْكِـهِ مُضَـرٌ وكُـلُّ يَـمَانِي
ولْيَبْكِـهِ الطَّـوْدُ الْمُعَظَّـمُ جَـوُّهُ والبَيْـتُ ذُو الأسْـتَارِ والأرْكَـانِ
يـا خَـاتَمَ الرُّسْـلِ الْمُبـارَكَ ضَـوْءُهُ صَـلَّى عليْـكَ مُنَـزِّلُ القُـرْآنِ

لقد وجد النقادُ في مرثيتها مثالاً يُحتَذَى في رثاءِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أو في ذِكْرِه. وليست المسألة هنا مسألة نساء شواعر، في طباعهن خوَرٌ وضعف عزيمة، بل هي أكبر بكثير، فإنها الصِّدِّيقة الزهراء، وهو أبوها، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو سيد الأولين والآخِرين، ورثاؤها نموذجٌ فريد لا يتكرَّر، بل تضع به بعض التقاليد الشعرية التي يمكن لشاعر آخَرُ أن يسير على منوالها.

ولقد كثرت المراثي في شعر بني هاشم، ومنها ما جاء في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي سيأتي في نهاية مبحث الرثاء.

([1]) العمدة لابن رشيق ص841.

أ- رثاء الآباء:

حين مات هاشمُ بنُ عبد مناف، غريبًا عن موطنه مكة، في غزَّة من أرض الشام، وجاء عبيدُه بخبر وفاته، رثته بناته: خالدة وصفية ورقية والشعثاء.

لقد رثته خالدة بمرثيتين، ثم قالت قصيدة رثت بها أباها وأعمامها، فحين جاء خبر وفاته قالت خالدة([1]):

يـا أيُّـهَا النَّـاعُونَ أفْضَـلَ مَـنْ مَشَـى الفَاضِـلَ ابْـنَ الْفَاضِـلِ ابْـنِ الْفَاضِـلِ
أسَـدُ الشَّـرَى مَـا زَالَ يَحْـمِي أَهْـلَهُ مِـنْ ظَـالِمٍ أوْ مُعْتَـدٍ بالْبَاطِـلِ
مَـاضِي الْعَزِيـمَةِ أرْوَعٌ ذُو هِمَّـةٍ عُـلْيَا وَجُـودٍ كالسَّـحَابِ الْهَاطِـلِ
زَيْـنُ العَشِـيرَةِ كُلِّهَـا وعِمَـادُهَا عِنْـدَ الْهَـزَاهِزِ طَـاعِنٌ بِالـذَّابِلِ
إنَّ السَّـمَيْدَعَ قَـدْ مَضَـى فِـي بَـلْدَةٍ بالشَّـامِ بَـيْنَ صَحَاصِـحٍ وجَنَـادِلِ

فيُلاحَظُ أنَّها في قولها (الفاضل بن الفاضل بن الفاضل) نسبته إلى أجداده وذكرت أنه ورث الفَضْلَ كابرًا عن كابر، وأبًا عن جَدٍّ، وذكرت ارتفاع نسبه بهذا التسلسل الذي يشبه سلسلة النسب، ثم ذكرت الصفات والقيم التي يُمْدَح بها الرجالُ والأبطالُ في الجاهلية، لكنَّ هذه الصفات كثيرة بحيث لا تجتمع في شخص واحد، إلا في هاشم بْنِ عبد مناف.

أما قصيدة خالدة التي ترثي بها أباها وأعمامها، فتقول فيها([2]):

بَكَـتْ عَيْـنِي وحُـقَّ لَـهَا بُـكَاهَا وعَـاوَدَهَا إذَا تُمْسِـي قَـذَاهَا
أُبَـكِّي خَـيْرَ مَـنْ رَكِـبَ الْمَطَـايَا ومَـنْ لَـبِسَ النِّعَـالَ ومَـنْ حَـذَاهَا
أُبَـكِّي هَاشِـمًا وبَـنِي أبِيـهِ فَعِيـلَ الصَّـبْرُ إذْ مُنِعَـتْ كَـرَاهَا
وكُنْـتُ غَـدَاةَ أذْكُـرُهُمْ أرَاهَـا شَـدِيدًا سُـقْمُهَا بَـادٍ جَـوَاهَا
فَـلَوْ كانَـتْ نُفُـوسُ الْقَـوْمِ تُفْـدَى فَدَيْتُـهُمُ وحُـقَّ لَهَـمْ فِـدَاهَا

([1]) انظر القصيدة رقم (1) من مجموع شعر خالدة بنت هاشم.

([2]) انظر القصيدة رقم (5) من مجموع شعر خالدة.

وها هي الشعثاءُ بنتُ هاشم، في مرثية ترثي بها أباها، وتُعَدِّد كثيرًا من الخصال التي لا يمكن أن تجتمع معًا في شخص واحد، إلا هذا الرجل، الأب، والسيد، والمعلوم صفاته لكل الناس([1]):

عَيْنُ جُودِي بِعَبْرَةٍ وسُجُومِ واسْفَحِي الدَّمْعَ لِلْجَوَادِ الْكَرِيمِ
عَيْنُ واسْتَعْبِرِي وسُحِّي وجُمِّي لأبِيكِ الْمُسَوَّدِ الْمَعْلُومِ
هَاشِمِ الْخَيْرِ ذِي الْجَلالَةِ والْمَجْـ ـدِ وذِي الباعِ والنَّدَى والصَّمِيمِ

وقالت صفيةُ بنتُ هاشم ترثيه([2]):

ألا أيُّهَا الرَّكْبُ الَّذِينَ تَرَكْتُمُ كَرِيمَكُمُ بِالشَّامِ رَهْنَ مَقَامِ
أَلَمْ تَعْرِفُوا مَا قَدْرُهُ وفَخَارُهُ ألا إنَّكُمْ أَوْلَى الْوَرَى بِمَلامِ
أيا عَبْرَتِي سُحِّي عَلَيْهِ فَقَدْ مَضَى أخُو الْجُودِ والأضْيَافِ تَحْتَ رُخَامِ

إنها تلومُ مَنْ كانوا معه، فلقد كان هاشمٌ شخصية عظيمة، تستحق أن يُؤتَى بجثمانه ليُدْفَن إلى جوار الحرم، وإلى جوار أجداده، وأن يجتمع لدَفنِه كُلُّ مَنْ يُدْرِك مكانته. إنه بالفعل شخصية نادرة، تستحق أن يُعمَل فيها القصائد، في حياته وبعد مَماته.

وفي رثاء الآباءِ توجَدُ تجربة فريدة، حيث يسمع الْمَرْثِيُّ رثاءه بنفسه، قبل مماته. لقد كانت رغبة عبد المطلب بن هاشم– حين حضرته الوفاة– أن يسمع رثاءه من بناته قبل وفاته، فيقال إن بناته الست قد رثينه، لكنهنَّ في هذا الكتاب خمس بنات، أما السادسة– وهي صفية– فكانت صغيرة في سن العاشرة، حين مات عبد المطلب، مما جعلنا نستبعد رثاءها لأبيها قبل وفاته.

لقد بكَتْهُ بناتُه ووصَفْنَهُ بجوامع صفات الخير، التي كان لابد أن يتأكَّد من أنها محفوظة في الأذهان، وأنَّ هذه الصفات تؤمن بها بناته، وبأنها الْمُثُلُ العُليا التي يجب أن تتحقق في إنسانٍ في مكانته. وعلى سبيل المثال، تقول أروى بنت عبد المطلب([3]):

([1]) انظر القصيدة رقم (3) من مجموع شعر الشعثاء.

([2]) انظر القصيدة رقم (2) من مجموع شعر صفية بنت هاشم.

([3]) انظر القصيدة رقم (1) من مجموع شعر أروى.

بَكَتْ عَيْنِي وحُقَّ لَهَا البُكاءُ عَلَى سَمْحٍ سَجِيَّتُهُ الْحَيَاءُ
عَلَى سَهْلِ الْخَلِيقَةِ أبْطَحِيٍّ كَرِيمِ الْخِيمِ، نِيَّتُهُ العَلاءُ
عَلَى الفَيَّاضِ شَيْبَةَ ذِي الْمَعَالِي أبِيكِ الْخَيْرِ لَيسَ لَهُ كِفَاءُ
طَوِيلِ البَاعِ أمْلَسَ شَيْظَمِيٍّ أغَرَّ كَأنَّ غُرَّتَهُ ضِيَاءُ

لم تتوقَّف أروى عند هذا الحد من الوصف، لكنها واصَلَتْ سَرْدَ صفاته حتى البيت العاشر (الأخير) من القصيدة، فلم تترك صفة من صفات الخير إلاَّ وجدتها فيه. وكذلك فعلتْ أخَوَاتُها في مراثيهنَّ لأبيهن عبد المطلب.

ويُلاحَظُ على شعر الرثاء أن الشاعرة قد تُعَدِّد الصفاتِ الحميدةَ للمرثي، وقد تنفي عنه الصفات الرديئة، وهو ما لم يَسْتَسِغْهُ جورج غريب في شعر عاتكة بنت عبد المطلب([1])، حين تنفي الصفات الذميمة عن المرثي، كأن تقول في رثائها لأبيها:

أعَيْنَيَّ واسْتَخْرِطَا واسْجُمَا عَلَى رَجُلٍ غَيْرِ نِكْسٍ كَهَامْ

فهي تصفه بأنه غيرُ نِكْس، أي: غير ضعيف، وغير كَهَام، والكهامُ من السيف الكليل الذي لا يَمْضِي. وهو غيرُ مُحِقٍّ في ملحوظته، لأنها طريقة في التعبير استعملها العرب في المدح، واستعملها القرآن الكريم، حيث نفَى كثيرًا من الصفات الذميمة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فالوصف بمخالفة الصفات الذميمة نوع من المدح([2]).

ب– رثاء الأبناء:

كان لعبد المطلب بن هاشم أملٌ كبير في أن يرث أبناؤه أمجاده وصفاته، وأن يبدءوا من حيث انتهى، لكن الموت اختطف الحارث بن عبد المطلب، أكبر أبنائه، والذي كان له دَوْرٌ معه في حفر زمزم، وفي كثير من الأحداث، وقد سُقِيَ السُّمَّ بسبب عِفَّتِه،

([1]) شاعرات العرب في الجاهلية، لجورج غريب ص224 و225.

([2]) لا يخفى أن هذا في كثير من آيات القرآن الكريم، ومن أمثال ذلك قوله تعالى: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ [سورة التكوير: 22]. وقد نفى القرآن عن النبي صلى الله عليه وسلم في سياق المدح هذه الصفة أيضًا، في قوله تعالى: ﴿ما أنتَ بِنِعْمةِ رَبِّكَ بِمَجْنون. وإنَّ لكَ لأجْرًا غيرَ مَمْنُون. وإنك لعَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾ [سورة القلم: 2–4]. وغير ذلك من آيات.

ومخالفته هوَى امرأةٍ شبقة هي زوجة الملك الذي كان يُنادمه. لقد جزع عليه عبد المطلب جزَعًا شديدًا، فدعا لهذا الجسد المسجَّى بالسقيا، وكيف ينساه وأعلام الحرم مرفوعة تُذَكِّره بآماله فيه، فقال عبد المطلب([1]):

سَــقَى الإلَــهُ صَــدًى وارَيْتُــهُ بِيَــدِي   بِبَطْــنِ مَــكَّةَ يَعْــفُوهُ الأعَاصِــيرُ
يـا حَـارِثَ الْخَيْـرِ قـد أوْرَثْتَنِـي شَـجَنًا   فمــا لِقَــلْبِيَ عَــنْ ذِكْــرَاكَ تَغْيِــيرُ
فَلَسْــتُ أنْسَــاكَ مـا هَبَّــتْ شَــآمِيَةٌ   ومــا بَــدَا عَــلَمٌ فــي الآلِ مَعْــمُورُ

ثم جاء الفَقْدُ الآخَر لابنه عبد الله، الذي كان حريصًا عليه، وتوسَّلَ إلى الله كثيرًا أن لا يقع عليه الاختيار ليذبحه وفاءً بنذره، وزوَّجَه، لكنه بعد زواجه بقليل جاءت أنباءُ وفاته ودَفْنِهِ بالمدينة، فقال عبد المطلب([2]):

أحِبَّـتِي هَـانَ كُـلُّ الشَّـيْءِ فـي نَظَـرِي   لَــمَّا رَحَلْتُــمْ ومــا قضَيْــتُمُ وَطَــرِي
غِبْـتُمْ عـن العَيْنِ، فـي قَلْبِي لِبُعْـدِكُمُ   نــَارٌ تَلَهُّــبُهَا يُغْشِــي علــى بَصَــرِي
لكِــنْ قَضَــى اللهُ رَبِّــي، لا مَــرَدَّ لَــهُ،   فَلأحْــذَرَنَّ لِمــَا يَجْــرِي بــه قَــدَرِي

لقد كانت له فيه آمالٌ لم يرَهَا وهي تتحقق، فماذا يفعل أمام قدَر الله إلا التسليم له؟!

ج- رثاء الإخوة:

حين مات عبد المطلب بن هاشم، رثته أخواته الثلاث: الشعثاء وصفية ورقيَّة، فأظهرن جزعهنَّ على وفاته، ووصفنه بصفاته. فمما قالته الشعثاء([3]):

ألا يــا عَــيْنُ وَيْحَــكِ أسْعِدِيــنِي   بِدَمْــعٍ وَاكِــفٍ هَطِــلٍ غَزِيــرِ
عَلَـى سَـمْحِ السَّـجِيَّةِ ذِي فُضُـولٍ   كَرِيــمِ الْخِــيمِ ذِي نَفَــلٍ كَثِيــرِ
طَــوِيلِ البَــاعِ أرْوَعَ شَــيْظَمِيٍّ   أغَــرَّ كَغُــرَّةِ القَــمَرِ الْمُنِيــرِ

([1]) انظر القطعة رقم (1) من المستدرك على شعر عبد المطلب.
([2]) انظر القطعة رقم (2) من المستدرك على شعر عبد المطلب.
([3]) انظر القصيدة رقم (1) من مجموع شعر الشعثاء.

عَلَـى الفَيَّـاضِ شَـيْبَةَ ذِي الْمَعَـالِي   أخِيـكِ مِـنَ ٱعْظَـمِ الْحَـدَثِ الْكَبِـيرِ

وحين مات الحارثُ بنُ عبد المطلب، رثته أخته البيضاء أمُّ حكيم، فذكرتْ أنه صاحبُ فضائل، وهو شهيد الفضيلة بالفعل، فقد عادت عليه الفضيلة بالموت مسمومًا، وقالت في مطلع مرثيتها([1]):

مَـا لِلدِّيَـارِ قَـدُ ٱفْحِـمَتْ   مِـنْ رَبِّـهَا مَيْـتِ الْحِـلالِ
مَيْـتِ الرَّزِيَّـةِ والْمُصِيـ   ـبَةِ والْفَضِيلَـةِ وَالْفِعَـالْ
فَلَـئِنْ هَـلَكْتَ لَتُورَثَـنْ   مِـنْ خَـيْرِ مِـيرَاثِ الـرِّجَالْ

وبعد أن توفي الزبير بن عبد المطلب، رثته أخته صفية، وكان مما رثته به قولها([2]):

قَـدْ كَـانَ فـي نَفْسِـيَ أنْ أتْـرُكَ الْـ   ـمَوْتَى ولا أُتْبِعَـهُمْ قَافِيَـهْ
فَـلَمْ أُطِـقْ صَـبْرًا عَلَـى رُزْئِـهِ   وَجَدتُـهُ أقْـرَبَ إخْوَانِيَـهْ
لَـوْ لَـمْ أقُـلْ مِـنْ فِـيَّ قَـوْلاً لَـهُ   لَقَضَّـتِ الْعَـبْرَةُ أضْلاعِيَـهْ
فَهْـوَ الشَّـآمِي والْيَـمَانِي إذَا   مَـا خَضِـرُوا، ذُو الشَّـفْرَةِ الدَّامِيَـهْ

فهي ترثيه لتستريح من كتمان الألم، وتذكر صفاته المعروفة عنه، فهو السيف إذا خَضِرُوا (جمعوا الكتائب)، وشفرته دامية، ومع أنه ليس شقيقًا لها فهو أقربُ إخوانها إليها، بفَضْل رفقه بإخوته وأخَوَاتِه، وبفضل رعايته لهم، ووراثته مسئوليات أبيه. فكان لابد لها من الرثاء، الذي كانت قد قرَّرَت أن تتركه.

ولَمَّا ماتَ أبو طالب، الْمُدَافِعُ الأولُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي تحَمَّلَ مِنْ أجْلِه حِصَار بني هاشم في الشِّعب، كان لابد من رثائه والإعلان عن وارثه في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فها هو أخوه حمزةُ بن عبد المطلب يرثيه، وسط شماتة الكفار في النبي صلى الله عليه وسلم، فقد ظنوا أنهم قد انتهوا من أبي

([1]) انظر القصيدة رقم (**4**) من مجموع شعر البيضاء في هذا الكتاب.

([2]) انظر القصيدة رقم (**26**) من مجموع شعر صفية بنت عبد المطلب.

طالب، وأنه سيَسْهُل عليهم التخلُّص من النبي صلى الله عليه وسلم. فحمزةُ يرثي أخاه أبا طالب ويُعلن في مرثيته أنهم لن يُسْلِمُوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، بل انتقل من الرثاء إلى مدح خير الأنام. يقول حمزة([1]):

أخَـا الْهُلْـكِ، خَـلَّى ثُلْمَـةً سَتَسُـدُّهَا بَنُـو هاشـمٍ أنْ تُسْـتَبَاحَ وتُضْـهَدَا
فأمْسَـتْ قـريشٌ يفْرَحُـونَ لِفَقْـدِهِ ولَسْـتُ أرَى حَيـًّا لشـيءٍ مُخَلَّـدَا
أرَادُوا أُمُـورًا زَيَّنَتْـهَا حُـلُومُهُمْ سَـتُورِدُهُمْ يَـوْمًا مِـنَ الْغَـيِّ مَـوْرِدَا
يُرَجُّـونَ تَكْـذِيبَ النَّـبِيِّ وقَتْـلَهُ وأنْ يَفْـتَرُوا بُهْـتًا عَلَيْـهِ، ويُجْحَـدَا
كذَبْـتُمْ وبَيْـتِ اللهِ حَـتَّى نُذِيقَـكُمْ صُـدُورَ العَـوَالِي والصَّفِيـحَ الْمُهنَّـدَا

ثم تَوَصَّلَ حمزةُ إلى إيمانه بنصر الله لنبيِّه، وإلى مدحه صلى الله عليه وسلم، فقال:

وإنَّ لَـهُ مِـنْكُمْ مِـنَ اللهِ نَـاصِرًا ولَسْـتُ بِـلاقٍ صَـاحِبَ اللهِ أَوْحَـدَا
نَـبِيٌّ أَتَـى مِـنْ كُـلِّ وَحْـيٍ بِحَظِّـهِ وسَـمَّاهُ رَبِّـي فـي الْكِتَـابِ مُحَـمَّدَا
أغَـرُّ كـأنَّ البَـدْرَ سُـنَّةُ وَجْـهِهِ جَـلا الغَـيْمَ عَنْـهُ ضَـوْءُهُ فَتَـوَقَّدَا
أَمِينٌ عَلَـى مـا اسْـتَودَعَ اللهُ قَلْبَـهُ وإنْ قـالَ قَـوْلاً كـانَ فيـهِ مُسَـدَّدَا

لقد كان لرثائه هذا أهميةٌ في توصيل رسالة إلى كفار قريش ومُعانديهم، بأنَّ الثغرة التي تركها أبو طالب ستسدُّها عنه بنو هاشم، وأنها مسألة مبدأ، كان يعتنقه أبو طالب.

د- رثاء الزوج والأقارب:

للزَّوْجِ مكانةٌ عند زوجته، لا تستطيع مفارقته، وأبسط ما يمكن توقعه أن ترثيه مَنْ تُطِيقُ الرِّثاء، فإذا كان الرجُلُ من ذَوِي الوجاهة والأهل المشهورين بالفضائل فهي تنسبه إليهم، وتنسبه إلى الفضائل، وها هي رُقَيْقةُ بنتُ أبي صيفي بن هاشم، ترثي ثلاثة معًا:

([1]) انظر القصيدة رقم (4) من مجموع شعر حمزة في هذا الكتاب.

زوجها نوفل بن أهيْب بن عبد مناف بن زُهْرَة، وعَمَّيْه: أبا قيس بن عبد مناف بن زُهرة، الْمُسَمَّى راكب البريد، ووهب بْنَ عبد مناف بن زُهرة، جَدَّ النبي صلى الله عليه وسلم. فتقول رقيقة([1]):

يَـــا عَـــيْنُ بَـــكِّي رَاكِـــبَ البَرِيـــدِ
ونَوْفَـــلَ الْخَـــيْرِ أبَـــا يَزِيـــدِ
ووَهْـــبًا الْمُكَـــرَّمَ الْجُـــدُودِ
الوَاهِـــبَ العَـــنْسَ مَـــعَ الْقُتُـــودِ

فقد كان من مفاخر أبي قيس بن عبد مناف، أنه كان يُسَمَّى راكب البريد، لأنه كان له اتصالٌ بملوك العراق والشام، فحمله بعضُهم على البريد، فسُمِّيَ راكب البريد. وهو عَمُّ زوجها نوفل بن أهيب بن عبد مناف، الذي يُكنى أبا يزيد. ولزوجها عَمٌّ آخَرُ هو وَهبُ بْنُ عبد مناف بن زُهرة، جَدُّ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، أبو أمِّه، وقد وصفته بأنه مُكَرَّم الجدود– ومن ثَمَّ هُمْ جميعًا– وبأنه الواهب العنس مع القُتُود، وهذا من السعة في الكرَم، حيث يُعطي الجمل بما حمل، فالعَنْسُ الناقةُ القوية، والقُتُود جمعُ القَتَد، وهو جميعُ أدَوَاتِ الرَّحْل، ومن دواعي الكرَم أن يَهَبَ في سعة. ونلاحظ أنها حين ذكرت اسم زوجها (نوفل) أتت بمعناه اللغوي (وهو الرجل المعطاء) وأضافته للخير، فهو نوفل اسمًا وفعلاً([2]).

هـ– رثاء النبي صلى الله عليه وسلم:

لقد مَرَّ بنا رثاءُ السيدة فاطمة الزهراء لأبيها النبي صلى الله عليه وسلم، أما عن شعراء هذا الكتاب الذين جمعتُ شعرهم، فقد رثاه أبو سفيان بن الحارث، وأروى بنت عبد المطلب، وهند بنت الحارث بن عبد المطلب، ورثته عمته عاتكة بثلاث مراث،

([1]) انظر القطعة رقم (1) من مجموع شعر رقيقة، في هذا الكتاب.

([2]) يجوز أن يكون لفظ (الخير) مجرورًا بالإضافة، كما يجوز أن يكون نعتًا منصوبًا، بمعنى (الْخَيِّر)، ولذلك ضبطتها بالحركتين في قسم الجمع من هذا الكتاب.

ورثته عمته صفية باثنتي عشرة مرثية. فبلغت مراثيه صلى الله عليه وسلم ثماني عشرة مرثية عند شعراء هذا الكتاب.

فأمَّا ابنُ عَمِّه أبو سفيان بن الحارث، فقد عَبَّرَ عن المصيبة بفقده صلى الله عليه وسلم، وبفَقْدِ الوحي والتنزيل، وجلاء الشك، ثم انتقل إلى مدحه([1]):

أُصِبْنَا بِالنَّبِيِّ وقَدْ رَزَانَا مُصِيبَتُنَا فَمَحْمَلُهَا ثَقِيلُ
نَبِيٌّ كَانَ يَجْلُو الشَّكَّ عَنَّا بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ ومَا يَقُولُ
ويَهْدِينَا فَلا نَخْشَى ضَلالاً عَلَيْنَا والرَّسُولُ لَنَا دَلِيلُ
يُخَبِّرُنَا بِظَهْرِ الغَيْبِ عَمَّا يَكُونُ فَلا يَخُونُ ولا يَحُولُ
فَلَمْ نَرَ مِثْلَهُ فِي النَّاسِ حَيًّا ولَيْسَ لَهُ مِنَ الْمَوْتَى عَدِيلُ

وأمَّا ابنةُ عَمِّه هندُ بنتُ الحارث، فإنها تفَجَّعَتْ عليه، ومدحته بالمبارك وبالميمون، وبنسبه الصريح غير المختلط، بل إنها نسبته إلى أمه آمنة، التي كان لها شأنٌ بين قومها، وكانت تُدْعَى حكيمة بني زُهْرَة، فقالت([2]):

لَقَدْ أَتَتْنِي مِنَ الأَنْبَاءِ مُعْضِلَةٌ أَنَّ ابْنَ آمِنَةَ الْمَأْمُونَ قَدْ ذَهَبَا
أَنَّ الْمُبَارَكَ والْمَيْمُونَ فِي جَدَثٍ قَدْ أَلْحَفُوهُ تُرَابَ الأَرْضِ والْحَدَبَا
أَلَيْسَ أَوْسَطَكُمْ بَيْتًا وأَكْرَمَكُمْ خَالاً وَعَمًّا كَرِيمًا لَيْسَ مُؤْتَشَبَا

يتبقَّى أمامنا رثاءُ عَمَّاته له صلى الله عليه وسلم: أروى، وعاتكة وصفية. وهُنَّ متابعاتٌ لكل خطواته منذ بداية الدعوة. أمَّا أرْوَى فتستهل مرثيتها بالدموع فتقول([3]):

ألا يَا عَيْنُ وَيْحَكِ أسْعِدِينِي بِدَمْعِكِ- مَا بَقِيتِ- وطَاوِعِينِي
ألا يَا عَيْنُ وَيْحَكِ واسْتَهِلِّي عَلَى نُورِ الْبِلادِ وأسْعِدِينِي
فَإِنْ عَذَلَتْكِ عَاذِلَةٌ فَقُولِي: عَلامَ وفِيمَ وَيْحَكِ تَعْذِلِينِي؟

([1]) انظر القصيدة رقم (13) من مجموع شعر أبي سفيان بن الحارث.
([2]) انظر القصيدة الوحيدة لهند بنت الحارث، في قسم الجمع.
([3]) انظر القصيدة رقم (3) من مجموع شعر أروى.

عَلَـــى نُـــورِ الْبِـــلادِ مَعـــًا جَمِيعـــًا رسُـــــولِ اللهِ أحـــــمدَ فاتْرُكيـــــنِي

فهي تذْكُر نبوته صلى الله عليه وسلم، وتنعته بأنه نور البلاد جميعها، وقد فقدت البلادُ نورَها، وقد فقدَتْه هي أيضًا.

وأمَّا عاتكةُ فتستهل مراثيها الثلاث بالدموع والبكاء- أيضًا- فتقول في إحداها[1]:

يَـا عَـيْنُ جُـودِي- مـا بَقِيـتِ- بِعَـبْرَةٍ سَـــحًّا عَلَـــى خَـــيْرِ الْبَرِيَّـــةِ أحْـــمَدِ
يـا عَـيْنُ فَاحْتَـفِلِي وَسُـحِّي وَاسْـجُمِي وَابْـــكِي عَـــلَى نُـــورِ الْـــبِلادِ مُحَـــمَّدِ
أنَّـى- لَـكِ الْوَيْـلاتُ- مِثْـلُ مُحَـمَّدٍ فـــي كُـــلِّ نَائِبَـــةٍ تَنُـــوبُ ومَشْـــهَدِ
فَابْـكِي الْمُبَـارَكَ والْمُوَفَّـقَ ذَا التُّـقَى حَـــامِي الْحَقِيقَـــةِ ذَا الرَّشَـــادِ الْمُرْشِـــدِ

أمَّا المراثي الاثنتا عشرة لصفية بنت عبد المطلب، فمنها قطعتان كل منهما بيت واحد لا نعرف له بقية. وأما مراثيها العَشْرُ الأخرى فقد استهلَّت خمسًا منها بالدموع، وأربعًا بالأرَق وطول الليل ومجافاة الوساد، وواحدةً بالخوف مما تركه الرسول من فراغ ثم بدأت تعبر عن البكاء في البيت الثالث، حيث قالت[2]:

ألا يـــا رَسُـــولَ اللهِ كُنْـــتَ رَجَاءَنـــا وَكُنْـــتَ بِنَـــا بَـــرًّا وَلَـــمْ تَـــكُ جَافِيـــا
وَكُنْـــتَ رَحِيـــمًا هَادِيًـــا وَمُعَـــلِّمًا لِيَبْـــكِ عَلَيْـــكَ الْيَـــوْمَ مَـــنْ كَـــانَ بَاكِيَـــا
لَعَـــمْرُكَ مَـــا أبْـــكِي النَّـــبِيَّ لِفَقْـــدِهِ ولَكِـــنْ لِـــمَا أخْشَـــى مِـــنَ الْهَـــرْجِ آتِيَـــا
كَـــأنَّ عَـــلَى قَلْبِـــي لِذِكْـــرِ مُحَـــمَّدٍ- وَمَـــا خِفْـــتُ مِـــنْ بَعْـــدِ النَّبِـــيِّ- الْمَـــكَاوِيَا

لقد نُكِبَ المسلمون بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان أهلُ بيته أشدَّ إحساسًا بتلك النكبة، وقد وصفت صفيةُ ذلك الإحساس بقولها[3]:

طَـــالَ لَيْـــلِي أسْعِدْنَـــنِي أخَـــوَاتِي لَـــيْسَ مَـــيْتِي كَسَائِـــرِ الأمْـــوَاتِ
لَـــيْسَ مَيْـــتِي كَمِثْـــلِ مَيْـــتٍ مِـــنَ النَّـــا سِ ولا كَـــانَ مِثْـــلُهُ فـــي الْحَيَـــاةِ

([1]) انظر القصيدة رقم (2) من مجموع شعر عاتكة.

([2]) انظر القصيدة رقم (24) من مجموع شعر صفية بنت عبد المطلب، من هذا الكتاب.

([3]) القطعة رقم (6) من مجموع شعر صفية في هذا الكتاب.

طَـــالَ لَيْـــلِي لِنَـــكْبَةٍ قَطَعَـــتْنِي لا أَرَى مِثْـــلَها مِـــنَ النَّـــكَبَاتِ

وهي تتألَّم لألم أهل بيته، فقد صار الحسنُ يتيمًا بوفاته صلى الله عليه وسلم([1]):

أرَى حَسَـــنًا أيْتَمْتَـــهُ وَتَرَكْتَـــهُ يُبَـكِّي وَيَـدْعُو جَـدَّهُ الْيَـوْمَ، نَـائِيَا

وهي تصف حجم المصيبة بوفاته، في قطعة لها تقول فيها([2]):

يَـا عَـيْنُ جُـودِي بِـدَمْعٍ مِنْـكِ مُنْحَـدِرِ ولا تَـــمَلِّي وَبَـــكِّي سَـــيِّدَ الْبَشَـــرِ
بَكِّـي الرَّسُـولَ فَقَـدْ هَـدَّتْ مُصِيبَتُـهُ جَمِيـعَ قَـوْمِي وأهْـلَ الْبَـدْوِ والْحَضَـرِ
ولا تَـــمَلِّي بُكَـــاكِ الـــدَّهْرَ مُعْوِلَـــةً عَلَيْـــهِ مَـــا غَـــرَّدَ الْقُـــمْرِيُّ بِالسَّـــحَرِ

وهي تصفه– في مراثيها– بالنبي، وبالرسول، وبالحبيب، فقالت في إحدى مراثيها([3]):

إذْ رَأيْنَـــا أنَّ النَّـــبِيَّ صَـــرِيعٌ فَأشَـــابَ الْقَـــذَالَ أيَّ مَشِـــيبِ
إذْ رَأيْنَـــا بُيُوتـــهُ مُوحِشَـــاتٍ لَـيْسَ فِيـهِنَّ بَعْـدَ عَـيْشٍ حَبِيـبِي
أوْرَثَ الْقَلْـــبَ ذَاكَ حُزْنًـــا طَـــوِيلاً خَـالَطَ الْقَلْـبَ، فَهْـوَ كَـالْمَرْعُوبِ
لَيْـتَ شِـعْرِي وكَيْـفَ أُمْسِـي صَـحِيحًا بَعْـدَ أنْ بِـينَ بِالرَّسُـولِ القَـرِيبِ

فكلمة (حبيبي) تقصد بها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهذا الحبُّ هو منبع ذلك الرثاء الحارّ الذي انتهجته عَمَّته صفية، ووجدنا لها فيه اثنتي عشرة مرثية، في خمسة وسبعين بيتًا، توزَّعَتْ على خمسة أبحُر، مع غلبة بحر الخفيف عليها، وكأنها كانت انقطعت لرثائه، وتريد أن تسلك طرقًا عِدَّة لرثائه، على معظم أبحر الشعر العربي.

([1]) القطعة رقم (24) من مجموع شعر صفية.
([2]) القطعة رقم (16) من مجموع شعر صفية في هذا الكتاب.
([3]) نقد الشعر لقدامة ص113.

رابعًا– الهجاء

الهجاء ضد المديح، ولذلك يقول قدامة بن جعفر: "فكلما كثرت أضدادُ المديح في الشعر كان أهْجَى له"([1]). ويرى ضياءُ الدين بن الأثير أنَّ أبْلغ الهجاء "ما قرُبَتْ معانيه، وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب، وخرج مخرج التهكم والتهافت، وكان بيِّن التصريح والتعريض"([2]).

ارتبط الهجاءُ بِالْحُروب وبالخلافات التي تنشب بين الناس، فكان الهجاء الشخصي والهجاء الْخُلُقيّ، بالطعن في الأنساب أو في الأخلاق، أما الهجاء الديني والسياسي فقد تم توظيفهما في الإسلام للتفريق بين الحق والباطل، ولكشف ألاعيب السياسة.

أ– الهجاء قبل الإسلام

لا يُشَكِّل الهجاءُ ظاهرة كبيرة عند بني هاشم قبل الإسلام، فقد انحصر في الرَّدِّ على منتقصي حقوقهم، أو مَنْ يُغَالطون فينسون فضلهم. وقد وجدنا بيتين لعبد المطلب بن هاشم، قالهما وهو غاضب، حيث كتب بعضُ الجبابرة إلى أهل مكة يطلب منهم الإتاوة، فكتب إليه عبد المطلب هذين البيتين اللذين يُعَدَّان رسالة شديدة اللهجة([3]):

العَبْدُ يَتْبَعُكُمْ يُرِيدُ حِبَاكُمُ ومَحَلُّهُ بِالْمَنْزِلِ الْمُتَدَلِّلِ

إنَّا أناسٌ لا نَدِينُ بأرْضِنَا عَضَّ الرَّسُولُ بِبَظْرِ أمِّ الْمُرْسِلِ

وكان أبو جهل قد أبى تأمير النبي صلى الله عليه وسلم على بني هاشم في سفرهم إلى الشام، حين سافر بأموال خديجة، بحجَّة أنه ينتقص منه كونه نشأ يتيمًا، فلا يجوز تسييده، وكان بنو هاشم يُجِلُّونه صلى الله عليه وسلم، لما كانوا يرون من بركاته، ومن

([1]) انظر القطعة رقم (4) من المستدرك على شعر عبد المطلب.

([2]) كفاية الطالب لابن الأثير ص97.

([3]) انظر القطعة رقم (4) من المستدرك على شعر عبد المطلب.

دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، فرَدَّ العباسُ بنُ عبد المطلب، يهجو أبا جهل ويُهدِّده، ويفتخر بقومه جميعًا، ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم، قائلاً([1]):

ألا أيُّهـا الوَغْـدُ الّـذِي رَامَ ثَلْبَنَـا أتَثْـلِبُ قَرْمـًا فـي الرِّجَـالِ كَرِيـمَا
أتثلبُ- يا وَيْكَ- الكريمَ أخَا التُّقَى حَبِيبـًا لِـرَبِّ العَـالَمِينَ عَظِيمـَا
ولـولا رِجَـالٌ قـد عَرَفْنَـا مَحلَّهُـمْ وكُـلاًّ تـرَاهُم مَحتِـدًا وزَعِيـمَا
لـدَارَتْ سُـيُوفٌ يفْـلِقُ الْهَـامَ حَـدُّهَا بأيْـدِي رِجَـالٍ ضـاربينَ سـليما
حُمَـاةٍ كُمَـاةٍ كالأسُـودِ ضَـرَاغِمٍ إذَا بَـرَزُوا صـارَ الفَضـاءُ جَحِيمـَا

ويُرْوَى لأبي سفيان بن الحارث بيتٌ واحد، فيه هجاءٌ شخصيٌّ جاهليٌّ، حيث ينتقص فيه أبو سفيان بنُ الحارث من عَمرو بْنِ العاص، ويطعن في نسبه، مُشِيرًا إلى قصة ترويها بعض المصادر عن أنه ادَّعاهُ أربعة، هم: أمية بن خلف، وهشام بن المغيرة، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل السهمي، فقالت النابغةُ أمُّه: هو من العاص بن وائل، لأنه كان يُنفق عليها، وكان بأبي سفيان أشبه، وعلى الرغم من أن المصادر لا تنص على توقيت هذا الهجاء، إذا كان قبل الإسلام أو بعده، فإنه بالهجاء الجاهلي ألصَق وأشبه، كما أنَّ أبا سفيان بن الحارث ذكر قبل موته أنه لم يتنطَّف- أي يتلطَّخ- بخطيئة منذ أسلم، فيكون هجاؤه هذا في زمن الجاهلية، أو في زمن جاهليته هو، أي قبل إسلامه، حيث يقول([2]):

أبُـوكَ أبـو سُـفْيَانَ لا شَـكَّ قـدْ بَـدَتْ لَنـَا فِيـكَ مِنْـهُ بَيِّنَـاتُ الشَّـمائِلِ

وهذا الهجاء المذكور في الجاهلية لا يُشكل ظاهرة، فإنه لا يتعدَّى بعض المواقف والأحداث، لكنه هجاءٌ عنيف، فالبيتان اللذان أرسلهما عبد المطلب يمنعان مَن يَسْمعهما من محاولة النَّيْل من قريش، كما أن أبيات العباس تمنع كُلَّ من تُسَوِّلُ له نفسه انتقاصَ أحَدٍ من بني هاشم.

([1]) انظر القصيدة رقم (17) من شعر العباس بن عبد المطلب.

([2]) انظر القطعة رقم (14) من شعر أبي سفيان بن الحارث، في مجموع شعره من هذا الكتاب.

ب- الهجاء في الإسلام

حين جاء الإسلام، لم يكن بنو هاشم جميعًا ممن أسلموا، فالذين أسلموا نصَرُوا الرسول صلى الله عليه وسلم، بأقوالهم وأفعالهم، ولم يتعرَّض له أحد ممن تأخَّرَ إسلامه إلا أبو سفيان بن الحارث، الذي لم يسلم إلا قبيل فتح مكة، وكان قبل ذلك يهجو الرسول صلى الله عليه وسلم، ويهجو المسلمين، وكان له مع حسان بن ثابت نقائض، بل كان ينتهز أي فرصة لهجاء الأنصار، ومن ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل سرية لم يكن فيها من الأنصار أحد، إلا أن القرشيين كان يغيظهم قوة شوكة المهاجرين وهُمْ بين الأنصار، لذلك فإن أبا سفيان بن الحارث، ردَّ على هذه السرية التي لم يكن بها أحد من الأنصار، بهجاء الأنصار، قائلاً([1]):

سَأَمْنَحُ جَانِبًا مِنِّي غَلِيظًا على ما كانَ مِنْ قُرْبٍ وبُعْدِ
رِجَالُ الْخَزْرَجِيَّةِ أَهْلُ ذُلٍّ إذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَعْدَ جِدِّ

وهو- قبل إسلامه- كان كثير الهجاء لحسان، لأنه العقبة الكبرى للدعاية ضد الإسلام والمسلمين، وكان يفضحُ المشركين وأفعالهم ويُذَكِّر بمثالبهم، ولذلك هجاه أبو سفيان هجاءً شخصيًّا ينالُ منه، قائلاً([2]):

ألا مَنْ مُبْلِغٌ حَسَّانَ أنِّي خَلَفْتُ أَبِي ولَمْ تَخْلُفْ أَبَاكَا
إن آنْتَ خَلَفْتَهُ لَمْ تُغْنِ شَيْئًا وزَلَّتْ عَنْ عَرَا العَلْيَا يَدَاكَا

لقد كانت الحربُ الكلامِيَّةُ مُشتعلةً بين المسلمين ومُشركي قريش، وقد فضح أفعالهم حسانُ بنُ ثابت، فكان يرد أبو سفيان بنقيضة يهجو فيها حسان بن ثابت، ويُحاول أن يُبَرِّر أفعال المشركين ويُخَطِّئ المسلمين. فقد كان أصحابُ رسول الله صلى

([1]) القطعة رقم (4) من شعر أبي سفيان بن الحارث، في مجموع شعره من هذا الكتاب.

([2]) القطعة رقم (10) من شعر أبي سفيان بن الحارث.

الله عليه وسلم، أصابوا في عَقِب بدر عِيرًا لقريش، فيها فضة، فكانوا تنكَّبُوا طريق الشام، وأخذوا طريق العراق. وكان أبو سُفيانَ بنُ حَرْبٍ، وعَدَ أن يلْقَى المسلمين، فكانتْ بَدْرٌ الآخِرَةُ في شعبان سنة أربع، فخرَجَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إليه، وتَحَرَّكَ أبو سُفيان ثم رَجَعَ، فسُمِّيَتْ غَزْوَة السَّويق، أو جيش السويق، حيث لم يفعل المشركون شيئًا غير أنهم تنَزَّهُوا وشَرِبُوا السَّويق. فقال حسَّانُ بنُ ثابت قصيدةً يهجُو بها أبا سُفيان ابن حرب، قائد جيش المشركين آنئذٍ، مطلعها:

دَعُوا فَلَجَاتِ الشَّامِ قد حال دُونها جِلادٌ كأفْواهِ الْمَخَاضِ الأوارِكِ

وآخِرُها:

فَأبْلِغْ أبا سُفيانَ عَنِّي رسالةً فإنَّكَ مِنْ شَرِّ الرِّجَالِ الصَّعَالِكِ

فأجَابَهُ أبو سُفْيَانَ بْنُ الحارث، بهجاءٍ جَاهِلِيٍّ، يسُبه فيه بأن أمَّه كانت من الحيوانات، وكنى عن ذلك بأنها تأكل قشر النخل، وهو مجرد سبٍّ جاهلي، وذكر في نقيضته، سريةَ المسلمين التي أصابت العِيرَ المحمَّلة بالفضة، فقال في أولها([1]):

أحَسَّانُ، إنَّا يا بْنَ آكِلَةِ الفَغَا وجَدِّكَ نَغْتَالُ الْخُرُوقَ كَذَلِكِ
خَرَجْنَا وما تَنْجُو الْيَعَافِيرُ بَيْنَنَا ولَوْ وَأَلَتْ مِنَّا بِشَدٍّ مُدَارِكِ

وأخَذَ يُفَنِّد قوْلَ حَسَّان، ويهدمه، حتى ذكره هو في نهاية القصيدة بأنه لا تُحتَسَبُ له أيُّ فضيلة، فهو ليس صاحب هجرة، كما أنه ليس بناسك، فقال في نهايتها:

حَسِبْتُمْ جِلادَ القَوْمِ عِنْدَ قِبَابِهِمْ كَمَأخَذِكُمْ بِالعَيْنِ أرْطَالَ آنُكِ
فَلا تَبْعَثِ الْخَيْلَ الْجِيَادَ وقُلْ لَهَا عَلَى نَحْوِ قَوْلِ الْمُعْصِمِ الْمُتَمَاسِكِ
سَعِدْتُمْ بِهَا وغَيْرُكُمْ كَانَ أهْلَهَا فَوَارِسُ مِنْ أبْنَاءِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ
فإنَّكَ لا فِي هِجْرَةٍ إنْ ذَكَرْتَهَا ولا حُرُمَاتِ الدِّينِ أنتَ بِنَاسِكِ

([1]) القصيدة رقم (11) من شعر أبي سفيان بن الحارث.

ليس معنى ذلك أن حسان بن ثابت لم يهجُهم هجاءً جاهليًّا، بل إنه كان يبحث عن كل ما يُوجعهم، فيوجعهم به. وأسلم أبو سفيان بن الحارث، قبيل فتح مكة، فتوقفت نقائضُ حسان وأبي سفيان.

أمَّا عن الهجاء قبل الهجرة، فقد كان يقوم به حمزةُ بن عبد المطلب، أسدُ الله وأسدُ رسوله، الذي تولَّى مهمة الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم، منذ أسلم. وكان أبو جهل– لعنه الله– قد آذَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فلمَّا علم حمزة شقَّ عليه ذلك، فذهب إلى أبي جهل وهو بين رجال قريش عند المسجد، وضربه بالقوس فشَجَّه شجَّة منكرة، وأعلن إسلامه أمام القوم ليكيده ومَنْ معه وليُعلن أمام قريش أنه يمنع النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم منهم، وقال حمزة أرجوزة شديدة اللهجة، بل يكفيه أنه حَمَّله لقبًا جديدًا هو (أبو جهل)، للتفريق بين الجهالة والحلم، وبين الحق والباطل، ومنذ نَبَزَهُ بهذا اللقب صار معروفًا به، وعَلمًا عليه، حيث قال حمزة([1]):

ذُقْ يـــا أبـــا جَهْـــلٍ بِمَـــا غَشَيْـــتَا
مِـــنْ أمْـــرِكَ الظَّالِـــمِ إذْ مَشَيْـــتَا
ستُسْـــعَطُ الرَّغْـــمَ بِمَـــا أتَيْـــتَا
تُـــؤْذِي رَسُـــولَ اللهِ إذْ نَهَيْـــتَا
عَـــنْ أَمْـــرِكَ الظَّالِـــمِ إذْ عَتَيْـــتَا

وهي أرجوزة تكلَّفَ فيها حمزةُ مشقَّة لزوم ما لا يلزَم، وأتى بالياء رِدْفًا، كأنه يضغَطُ على أضراسه، ويُهدِّد ويتوعَّد، لتكون أرجوزة تاريخية محفورةً في الأذهان، تردعُ كل من تسوِّل له نفسُه إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم.

([1]) الأرجوزة رقم (2) من مجموع شعر حمزة.

ثم وضع حمزةُ تقليدًا شعريًّا جديدًا في الإسلام، هو الهجاء الدِّيني، حين ذَمَّ كفار قريش بأنهم (كُفَّار)، فحين خرج حمزةُ بنُ عبد المطلب ليُبارز أحَدَ خُصومه من المشركين يوم بدر، قال خَصْمُه شعرًا، منه قولُه:

أبَدِّدُ الْخَلْقَ في الْمَيْدَانِ مُجْتَهِدًا فكيفَ تَسْلَمُ مِنْ كَيْدِي ومِنْ ضَرَرِي

فقال حمزة يرد عليه([1]):

تَبًّا لِقَوْلِكَ ما أعْيَا عَنِ البَشَرِ ولو تكونُوا بِعَدِّ الرَّمْلِ والقَطَرِ
يا جَاهِلاً قَدْرَهُ، فالآنَ أضْرِبُهُ بالسَّيفِ عُنْقَكَ، لا تَغْتَرَّ بِالْكُفُرِ
فَخُذْ- أيا كافِرًا- ما لا كِفاءَ لَهُ فقَدْ أتَاكَ شَدِيدُ الْمَكْرِ والْخَطَرِ

لقد ارتبط الهجاءُ بأحداث معينة، أو بظروف فيها حروب، ولا نكاد نعثر على هجاء آخَر، إلاَّ في وقعة صِفِّين، حيث كان عمرو بن العاص مع معاوية، ومِن أهمِّ مُعاونيه في هذه الحرب، وفي إدارة الصِّراع ضِدَّ خاتم الخلفاء الراشدين الإمام علي بن أبي طالب، وكان عبد الله بنُ العَبَّاس مع عليٍّ، هو وأخوه الفَضْل. وكتَبَ عمرٌو- بإشارة من معاوية- لعبد الله بن عباس كتابًا يُرَقِّقه فيه ويستميله، وكتب عمرٌو في آخره، قصيدة مطلعها:

طالَ البلاءُ فما يُرْجَى له آسي بَعد الإله سوى رفقِ ابن عَبَّاسِ
قُولا له قَوْلَ مَنْ يرجُو مودَّتَهُ لا تَنْسَ حَظَّكَ، إنَّ الخاسِرَ الناسي

فرَدَّ عليه عبدُ الله بن عباس بكتاب، ثم دعا أخاهُ الفضل، فقال: يا بْنَ أمِّ أجِبْ عَمْرًا، فرَدَّ الفَضْلُ على عمرو بقصيدة، وعرضَ الرَّدَّ على عليٍّ، فقال عليٌّ: أحسنت. ووضَع عبدُ الله قصيدة الفَضْل في أسفل الكتاب. وقصيدة الفضل تكشف عن خداع عمرو بن

([1]) القطعة رقم (6) من مجموع شعر حمزة.

العاص، وأن ترقيق عبد الله بن عباس مجرَّد وسواس تحدثه به نفسه أو يحدثه به الشيطان، وأن ما يفعل من ضلال ليس له دواءٌ إلا السيف([1]):

يا عَمْرُو حَسْبُكَ مِنْ خَدْعٍ وَوَسْوَاسِ فَاذْهَبْ، فما لكَ في تَرْكِ الْهُدَى آسِ
إلاَّ بَوَادِرُ طَعْنٍ في نُحُورِكُمُ تُشْجَى النُّفُوسُ بِهِ في نَقْعِ إفْلاسِ
بِالسَّمْهَرِيِّ وضَرْبٍ في شَوَارِبِكُمْ يُرْدِي الكُماةَ ويُذْرِي قُبَّةَ الرَّاسِ
هذا الدواءُ الذي يَشْفي جَمَاعَتَكُمْ حتى تُطيعُوا عَلِيًّا وابْنَ عَبَّاسِ

ويكشف لَهُ في القصيدة عن أنَّ مطامعه الشخصية مكشوفة، وهي التي تتمثل في أن عَمْرًا يرجو أن يكون أميرًا على مصر، بعد أن يتم لمعاوية ما يريد، فيدعو عليه بألاَّ يُبارك له الله في ذلك، ويذكر أنه لا يستحق شيئًا منها، ويُخوِّفه بالحرب:

قَتْلَى العِرَاقِ بِقَتْلَى الشَّامِ ذَاهِبَةٌ هَذَا بِهَذَا، ومَا بِالْحَقِّ مِنْ بَاسِ
لا بَارَكَ اللهُ في مِصْرٍ؛ لَقَدْ جَلَبَتْ شَرًّا، وحَظُّكَ مِنْهَا حُسْوَةُ الْحَاسِي
يا عَمْرُو إنَّكَ عَارٍ مِنْ مَكَارِمِهَا والرَّاقِصَاتِ، لأثْوابِ الْخَنَا كَاسِي
إن عادت الحربُ عُدْنَا فَالْتَمِسْ هَرَبًا في الأرْضِ أوْ سُلّمًا في الأُفْقِ يا قَاسِي

خامسًا– الغَزَل والحب

لم نجد غزلاً وتشبيبًا بالنساء في الشعر الهاشمي، إلاَّ في مقدمة غزلية واحدة في شعر الزبير بن عبد المطلب. لكنَّ عاطفة الرجل نحو زوجته أو عاطفة الزوجة نحو زوجها، هو أهم ما عثرتُ عليه في أشعارهم، مع قلة ذلك، فإن ذلك لا يُوجَدُ إلاَّ في قصيدتين اثنتين.

([1]) القصيدة رقم (5) من شعر الفضل بن العباس بن عبد المطلب، في هذا الكتاب.

أ- المقدمة الطللية التمهيدية:

على عادة الشعراء الجاهليين في الوقوف على الأطلال في بداية القصيدة، بصفته تقليدًا شعريًّا يُستخدَمُ للتشويق، نجد قطعة واحدة في الفخر عند الزُّبير بْنِ عبد المطلب، يبدؤها بالوقوف على دار زينب، قائلاً([1]):

يـا دَارَ زَيْنَـبَ بِالعَليـاءِ مِـنْ شَـرِبِ حَيَّيْـتُها وَاقِفـًا فَـلَمْ تُجِـبِ
إِنِّـي امْـرُؤٌ شَـيْبَةُ الْمَحْمُـودُ وَالِـدُهُ بَـذَّ الرِّجَـالَ بِحِـلٍّ غيـرِ مُؤتَشَـبِ
إِنِّـي إِذَا رَاعَ مَـالِي لا أُكَلِّفُـهُ إلاَّ الغزَاةَ وإلاَّ الـرَّكْضَ في السَّرَبِ

فها هو يقفُ عند شَرِب (وهو موضعٌ قرب مكة وبه كانت وقعة الفِجَار العُظْمَى التي كان هو أميرًا فيها على بني هاشم)([2])، يُحَيِّي دارًا درستْ فلا تُجيب، ثم ينتقل مباشرةً إلى الفَخْر بأبيه (شيبة الْحَمْد)، وهو اسم عبد المطلب، والذي أتى مُختَلِفًا بعض الاختلاف في الشعر (شيبةُ المحمودُ)- فلم يُضَفْ إلى الحمد وإنما وصف بأنه محمود- وبنسبه الصريح غير المختلط (غير مؤتشَب).

ولم نعرف في حياة الزبير مَنْ تُسَمَّى زينب، كما أنَّ بني هاشم مقيمون وليسوا من العَرَب الرُّحَّل الذين يتنقلون، وإنما الذي قاله الزبير من باب تقاليد الشعر، التي تُعرف بالوقوف على الأطلال؛ ولذلك فإنه من المناسب أن نذكر تسمية عبد الله عبد الجبار، هذا الغزل بالغزل التمهيدي، الذي فرَض سلطانه على جميع أغراض الشعر، إنه "لا يصدر عن عاطفة الحب ولا يدفع الشهوة، وإنما هو وسيلة لجذب الانتباه وتهيئة الجو للشاعر كي ينفذ إلى القلوب لينال ما يريد"([3]).

([1]) انظر شعر الزبير بن عبد المطلب (جمع د. المعيني) ص136.

([2]) معجم البلدان ج3- ص376.

([3]) قصة الأدب في الحجاز، عبد الله عبد الجبار، وعبد المنعم خفاجي ص526، وهذا الاقتباس يخص الكاتب الأول.

ب– استدعاء الزوجة في الفخر:

بعد غزوة حنين، افتخر العباسُ بن عبد المطلب، بوقوفه إلى جوار النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وبثباته إلى جواره ضمن تسعة فقط، في حين تفرَّق الباقون، في قصيدة يبدؤها بقوله([1]):

ألا هَـلْ أتَـى عِـرْسِي مَكَـرِّي ومَـوْقِفِي بِـوَادِي حُنَـيْنٍ والأسِـنَّةُ تُشْـرَعُ
وَقَوْلِي إذَا ما النَّفْسُ جَاشَتْ لَهَا: قِرِي وَهَـامٌ تُدَهْـدَى والسَّـوَاعِدُ تُقْطَـعُ
وكيـفَ رَدَدْتُ الْخَيْـلَ وَهْـيَ مُغِـيرَةٌ بِـزَوْرَاءَ تُعْطِـي باليَـدَيْنِ وتَمْنَـعُ

فهو في موقف يستحقُّ الفَخْر به، فيتساءل: هل بلغ امرأتي ما حدث: (مَكَرِّي) أي حَمْلَتي على الأعداء والأسنَّة مُشْرَعة؟ وتهدئتي للنفس إذا جزعت من هول ما ترَى، فأقول لها اهدئي، حين ترَى الرءوس تتدحرج والسواعد تُقطَع، وكيف كنت أرُدُّ الخيل التي تُغِير بقَوْسِي الموجَّهة إليهم؟ فهل بلغَ امرأتي كلُّ ذلك؟

فهو تقليدٌ شعري بين يدي القصيدة ولا يُعَبِّر عن أي أشواق أو ما أشبه، إلا أنه يريد سرد الوقائع، وتصوير مشاهد الحرب العنيفة التي خاضها بثبات مع قِلَّةٍ قليلة من الثابتين، فكأنه يستدعي امرأته ليقول: هل من سامع لما سوف أقول؟!

هذا التقليد الشعري نجده عند عمرو بْن كلثوم (ت نحو **20** ق هـ)، حيث قال:

ألا هَـلْ أتـى بِنْـتَ الثُّـوَيْرِ مَغَـارُنَا علـى حَـيِّ كَلْـبٍ والضُّـحَى لَـمْ تَرَحَّـلِ

جـ– مشاعر المحبة والشوق بين الزوجين:

حين سافر هاشمُ بنُ عبد منافٍ إلى غزَّة، سفرته الأخيرة التي اشتكى فيها ثم مات، اشتاق إلى سلمى بنت عمرو، زوجته الجديدة التي تركها حاملاً بعبد المطلب، ولم يُخْفِ هاشمٌ شوقه إليها، بل اتخذ أساليب الشعراء الذين يُرسلون أشواقهم وتحياتهم مع الرياح التي يستنشقونها، فقال هاشم([2]):

([1]) القصيدة رقم (**8**) من مجموع شعر العباس بن عبد المطلب، من هذا الكتاب.

([2]) انظر القطعة رقم (**1**) من مجموع شعر هاشم، في هذا البحث.

فيا ليتَ شِعْرِي هل سُلَيْمَى مُقِيمَةٌ تُعَالِجُ أشْوَاقِي وتَشْكُو لِغُرْبَتِي
فَوَاللهِ ما قد رُمْتُ في الْحُبِّ غَيْرَكُمْ ولا صَنَعَ العُذَّالُ فِيكِ بِسَلْوَتِي
وأسْتَنْشِقُ الأرياحَ مِنْ نَحْوِ أرْضِكُمْ لأنِّي غَرِيبٌ في الدِّيارِ بِوَحْدَتِي

أمَّا المرأةُ فقد تفتقد زوجها، وتوصي بالرفق به، وتدعو له، وتمدحه، وهو ما فعلته زينبُ بنتُ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين أُسِرَ زوجُها أبو العاص بنُ الرَّبيع، في غزوة بدر، وأرسلتْ في فدائه، وبعثت كتابًا للرسول صلى الله عليه وسلم، ومعه قلادة تفتدي بها زوجها، الذي لم يكن قد أسلم بعد، وتشفع له عنده. وكان كتابها نثرًا، ختمته بقصيدتها التي ترجُو فيها النبي صلى الله عليه وسلم أن يعفو عن زوجها، وتشكو إليه الفراق، أو كما قالت في نهاية قصيدتها([1]):

فَجُدْ يا رَسُولَ اللهِ عَنِّي تكَرُّمًا بِهِ لي سَرِيعًا إنه خيْرُ صاحِبِ
فَجُودُكَ مَوْصُوفٌ وفَضْلُكَ سابِقٌ وبِنْتُكَ في الأحزَانِ يا ذَا الْمَوَاهِبِ
وبِنتُكَ في الأحزانِ من أجْلِ بَعْلِهَا وفي قلبِها مِنْ ذَاكَ لَذْعُ العَقَارِبِ
فيا رَبِّ لاطِفْنِي بِإسْلامِ عامِرٍ فأنتَ الْمُرَجَّى في جَمِيعِ النَّوَائِبِ
فَنِعْمَ الفَتَى الْمَأمُونُ والسَّيِّدُ الذي يَغَارُ إذَا هَبَّتْ رِياحُ الْجَنائِبِ

ففكرة افتقاد زوجها جعلتها تحس في قلبها بلذع العقارب، إنه افتقاد شديد بين حبيبين، فقد كان هو الآخَر يُحبها ويفتقدها في أسفاره، ويقول في ذلك شعرًا، وهو هنا الفتى المأمونُ الذي تمتدحه، فإنه كان يُلَقَّب بذلك عند القرشيين.

([1]) انظر قصيدتها في مجموع شعرها في هذا البحث، والذي لم يضم غير قصيدة واحدة.

سادسًا- الحكمة

تتناثر الحكمة في أشعار كثير من شعراء بني هاشم. وقد أشار د. المعيني إلى وجود الحكم والأمثال في شعر عبد المطلب([1])، كما في قوله([2]):

وخَـيْرُ مـا يَفْعَـلُ الفِتْيـانُ أفعَـلُهُ وإنمـا يَتْبَـعُ الإنسـانُ أعْـرَاقَهْ

وكما في قوله([3]):

أنْحَى علَيْـهِ ولَـمْ يَحْفَـظْ لَـهُ رَحِـمًا مـا أمنَـعَ الْمَـرْءَ بينَ الْعَـمِّ والْخَـالِ

ومن القصائد التي تتناثر فيها الحكمة قصيدة لحمزة بن عبد المطلب، يردُّ بها على حاسدي النبيِّ محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول([4]):

كـادُوا ومـا خَـافُوا عَوَاقِـبَ كَيْـدِهِمْ والكَيْـدُ مَرْجِعُـهُ علـى مَـنْ كَـادَا
مـا كُـلُّ مَـنْ طَـلَبَ السَّـعَادَةَ نالَهَـا بِمَكِيـدَةٍ أو أنْ يَـرُومَ عِنـادَا

فلا شك أنَّ بيتيْ حمزة من أبيات الحكمة، يحتجُّ بهما على موقف الكيد والعناد الذي وقفه حاسدو النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وهما يصلحان للاستشهاد بهما في أي موقف مماثل.

وفي شعر حمزة تتناثر الحكم والأمثال، كقوله: وبئس خلالُ الحربِ حرب الأقارب- ولستُ أرى حَيًّا لشيءٍ مُخَلَّدَا- ولستُ بلاقٍ صَاحِبَ الله أوْحَدا- ولِلْحَيْنِ أسبابٌ مبيَّنةُ الأمرِ- إن الخبيث إلى غَدْرِ- وبعْضُ العاذلات لها سبيلُ- وذاتُ النصح مُشفقةٌ عَذُولُ- كذاك الظلمُ مُتَّخِمٌ وَبيلُ- وللأيام دائلةٌ تدولُ.

([1]) عبد المطلب بن هاشم شاعرًا، د. عبد الحميد المعيني ص37.
([2]) القطعة رقم (48) من شعر عبد المطلب، جمع د. المعيني ص55.
([3]) القطعة رقم (1) من شعر عبد المطلب، د. المعيني ص6.
([4]) القطعة (3) من مجموع شعر حمزة بن عبد المطلب.

وكان أبو سُفيان بنُ حربٍ قد أسلم، ثم لَـمَّا ترك الرسول صلى الله عليه وسلم، نَافَقَ ورأى أن يخرج مما هو فيه، وقال للعباس بن عبد المطلب: "يا أبا الفضل، متى تُطْلِقُني فقد ضَجِرْتُ وضاقَتْ أنفاسي وأشْرَفْتُ على الهلاك وما أظُنُّ أنِّي أنجو مما أنا فيه أبدًا". وكان العباسُ يُريد تنفيذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأن يصطحب أبا سفيان وصحبه، ويُريه العَرْض العسكريَّ الهائل، وجيوش المسلمين مُزَيَّنة تسير قبائل، فقال العباس لأبي سفيان([1]):

اصْـبِرْ قَلِيـلاً فَعُقْبَـى صَـبْرِكَ الفَـرَجُ ولا تَكُنْ عَجِلاً تَذْهَبْ بِكَ اللُّجَجُ

فقد أطلق العباسُ في هذا البيت حكمة، لقَّنه بها درسًا في الصبر وعاقبة العجلة.
وقال العباسُ بنُ عبد المطلب في تغيُّر الأحوال وتفرُّق الخلاَّن([2]):

إذَا مَجْلِـسُ الأنصـارِ حُـفَّ بِأهْـلِهِ وفَارَقَهـا فِيـهَا غِفـارٌ وأَسْـلَمُ
فَمَـا النَّـاسُ بِالنَّـاسِ الـذين عَهِـدتُهُمْ ولا الـدَّارُ بِالـدَّارِ التي كنـتُ أعْـلَمُ

وحين لا يجد أهلُ الجود ما يجودون به إلاَّ الشيء القليل، تبرُز أهميةُ بيتِ جعفر بن أبي طالب، الذي ألقى فيه جعفرٌ بالحكمة، التي يتمثل بها من يقف موقفه هذا، فقد تبعه أبو هريرة ذات يوم، وهو جائع، فلما بلغ جعفرٌ باب منزله رأى أبا هريرة، الذي كان من مساكين أهل الصُّفَّة، فقال له: ادخُلْ، فدخَل، ففكَّرَ حينًا فما وجَدَ في بيتِهِ إلاَّ نِحْيًا كان فيه سَمْنٌ مُرٌّ، فأنْزَلَهُ من رَفٍّ لهم، فشَقَّهُ بين أيديهم، فجَعَلا يلعقان ما كان فيه من السَّمن والرُّبِّ (ثفله الأسود)، وهو يقول([3]):

مـا كَلَّـفَ اللهُ نَفْسـًا فَـوقَ طاقَتِـهَا ولا تَجُـودُ يَـدٌ إلاَّ بِمـا تَجِـدُ

([1]) القطعة رقم (3) من مجموع شعر العباس بن عبد المطلب.

([2]) القطعة رقم (17) من مجموع شعر العباس بن عبد المطلب.

([3]) القطعة رقم (2) من مجموع شعر جعفر بن أبي طالب. وقد أنقذ البحث هذا البيت، الذي أخذه الفقيمي وزاد عليه بيتًا آخر، فصار له، وقد ذكرتُ ذلك في مبحث أثر شعر بني هاشم في شعر غيرهم.

ولا يكتمل الحديث هنا إلا بالإشارة إلى قصيدة الزبير بن عبد المطلب، التي ليس فيها إلا الحكم والأمثال، يقول في مطلعها([1]):

إذا كنتَ في حاجَةٍ مُرْسِلاً فأرْسِلْ حَكِيمًا ولا تُوصِهِ
وإنْ بابُ أمْرٍ علَيْكَ الْتَوَى فشَاوِرْ لَبِيبًا ولا تَعْصِهِ
وإنْ نَاصِحٍ مِنْكَ يَوْمًا دَنَا فلا تَنْأَ عَنْهُ ولا تُقْصِهِ
وذَا الْحَقِّ لا تَنْتَقِصْ حَقَّهُ فإنَّ القَطِيعَةَ في نَقْصِهِ

سابعًا– التبتُّل والدعاء:

وردت أراجيزُ كثيرةٌ لعبد المطلب يتبتل فيها إلى الله بالدعاء له، أن ينقذ ابنه عبد الله من الذبح، كما وردت له أشعارٌ وأراجيز كثيرة يتوجَّه بها إلى الله ليحمي الكعبة من أصحاب الفيل الذين جاءوا للاعتداء عليها.

ومما ورد في المستدرك على شعر عبد المطلب، في هذا الكتاب، رجز قاله عبدُ المطلب بعد أن قدَّمَ عَشْرَة من الإبل فداءً لابنه عبد الله من الذَّبْح، وأوقفها من وراء ابنه، وتعَلَّق بأستار الكعبة قائلاً:

يا رَبِّ جِئْ بِاليُسْرِ بَعْدَ العُسْرِ
يا خَالِقَ البَرِّ كذَا والبَحْرِ
أنْقِذْ وَلِيدِي مِنْ شِفَارِ النَّحْرِ
وخُذْ فِدَاهُ مِنْ نِيَاقٍ عَشْرِ

([1]) شعر الزبير بن عبد المطلب، جمع د. المعيني ص140.

ونلاحظ وجود الدعاء في شعر العباس بن عبد المطلب، ومن ذلك قوله بعد أن بنى دَارَهُ التي كانت إلى جوار مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، فجعل يرتجز قائلاً([1]):

بَنَيْتُـهَا بِـاللِّبْنِ والْحِجَـارَهْ

والْخَشَـباتُ فُـوَقٌ مُطَـارَهْ

يـا رَبِّ بـارِكَنَّ أهْـلَ الـدَّارَهْ

فقد أتَمَّ العباسُ بناء داره، وهي مناسبة خاصة به، فوصف الدار الجديدة بأنها مبنية باللِّبْن، أي الطوب اللَّبِن، والحجارة، والخشباتُ فُوَقٌ- جمع فُوقة أو فُوق بمعنى السهم- فهي مُقطَّعة مثل الأسهُم الساقطات النُّصول. وهي مُطارَة، أي أنَّ الخشبات بِطَوَار الدَّار، أي متصلة بحائطها على نسق واحد. ويدعو الله أن يبارك في أهلها. ويُروى بعد هذا الرجز: فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "اللهم باركن في أهل الدارة". وقد استجاب الله تعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم، فبارَك في أهل دارة العباس بن عبد المطلب.

والدعاء كثيرٌ في الأراجيز التي قالها شعراء بني هاشم لأبنائهم. وللعباس رجز في ترقيص ابنه تَمَّام، فقد تَمَّ به أبناؤه عشرة، فكان يحمله ويقول:

تَـمُّوا بِتَـمَّامٍ، فَصَـارُوا عَشَـرَهْ

يـا رَبِّ فاجْعَـلْهُمْ كِرَامًـا بَـرَرَهْ

وَاجْعَـلْ لَـهُمْ ذِكْـرًا وأنْـمِ الثَّـمَرَهْ

وقد تحقَّقَ دعاءُ العباس، فقد صار لأبنائه ذِكْرٌ، ولأحفاده دولة، سُمِّيت بالدولة العباسية، بل سُمِّي العصرُ الذي سادوا فيه طويلاً بالعصر العباسي.

([1]) القطعة رقم (5) من مجموع شعر العباس، في هذا الكتاب.

ثامنًا– التهاني

احتفظت لنا بعض المصادر ببعض الأشعار التي قيلت في زفاف السيدة خديجة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، حيث كانت أنظارُ بني هاشم وبعض البطون القرشية وغيرها تتجه نحو الرسول صلى الله عليه وسلم، انتظارًا لمبعثه، لما يرَوْنَ من بركاته صلى الله عليه وسلم، بل إنهم في هذا الزواج نفسه قد اكتشفوا أنَّ ما حدث لسيدنا إبراهيم من إعادة زوجته سارة إلى سن الشباب، وما حدث لسيدنا يوسف حيث أعاد الله له زليخا في سن الشباب– وجدوا خديجة التي بلغت سنَّ الأربعين قد عادت شابة، إكرامًا لمن تتوَالى عليه الكراماتُ والمعجزاتُ الإلهية، فأخَذَتْ فرحةُ بني هاشم بهذا الزواج أبعادًا أخرى من الاستبشار، ومن السعادة التي يعيشونها باعتبارها حقيقةً واقعة.

وقد سبقت الإشارةُ إلى بعض ما قيل في مدحه صلى الله عليه وسلم، في هذا الزواج، وأرجأتُ بعضه الآخَر ليكون ضمن التهاني بهذه المناسبة الخاصة. ومما قيل في هذه المناسبة، قول عَمَّتِهِ صفية، حيث أقْبَلَت مع النساء، بالسيدة خديجة وهي بكامل زينتها، وهي بين يديها، تُقْبِلُ بها على النبي صلى الله عليه وسلم، حتى أوقفتها بين يديه، وكانت صفيةُ تزفها إليه وتقول([1]):

جَاءَ السُّرُورُ مَعَ الفَرَحْ ... ومَضَى النُّحُوسُ مَعَ التَّرَحْ
أنْوَارُنَا قَدْ أقْبَلَتْ ... وَالْحَالُ فِيهَا قَدْ نَجَحْ
بِمُحَمَّدَ الْمَذْكُورِ فِي ... كُلِّ الْمَفَاوِزِ والْبُطُحْ
لَوْ أنْ يُوَازَنَ أحْمَدٌ ... بِالْخَلْقِ كُلِّهِمُ رَجَحْ
ولَقَدْ بَدَا مِنْ فَضْلِهِ ... لِقُرَيْشَ أَمْرٌ قَدْ وَضَحْ
تَمَّ السُّرُورُ لأحْمَدٍ ... والسَّعْدُ عَنْهُ مَا بَرِحْ

ومن الملحوظ أنها أغنية تتغنى بها في هذه المناسبة السعيدة، وتذكر مناقبه التي صارت منتشرة في الآفاق، لكنَّ أغاني الأفراح تتغنى بمناقب العروسين، فانتقلت صفية إلى جمال خديجة وشمائلها، فقالت:

([1]) القصيدة رقم (7) من مجموع شعر صفية بنت عبد المطلب.

بِخَدِيـــجَةٍ خُـــصَّ الْكَرِيـــ ـــمُ وَبَحْـــرُ نَائِـــلِهَا طَفَـــحْ
يَـــا حُسْنَـــهَا فـــي حَلْيِـــهَا والْحِـــلْمُ مِنْـــهَا مُتَّضِـــحْ

وعادت تمدح النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وتطلب من السامعين أن يُصلُّوا عليه، فلا شك أنهم– بذلك– قد بدءوا يتعاملون معه على أنه نبيٌّ مثلُ الأنبياءِ السابقين الذين يُصَلَّى ويُسَلَّمُ عليهم([1]):

هَـــذَا الأمِـــينُ مُحَـــمَّدٌ مَـــا فـــي مَدَائِحِـــهِ كَلَـــحْ
صَـــلُّوا عَلَيْـــهِ تَسْـــعَدُوا واللـــهُ عَنْـــكُمْ قَـــدْ صَـــفَحْ

وكانت عَمَّته البيضاءُ أمُّ حكيم في هذا الزفاف، وفي مقطوعتها فضَّلت النبيَّ صلى الله عليه وسلم على كل السابقين، فقد مشت بين يدي خديجة وهي تقول([2]):

جَنَحَـــتْ إلَيْـــكِ مَطِيَّـــةُ الآمَـــالِ وجَـــرَرْتِ فِيـــهِ فَـــوَاضِلَ الأذْيَـــالِ
وبَلَغْـــتِ مَـــكْرُمَةً تَطَـــاوَلَ فَرْعُـــهَا زَادَتْ علـــى الْهَضَـــبَاتِ والأجْبَـــالِ
ولَقَـــدْ حُبِيـــتِ بِسَـــيِّدٍ مـــا مِثْـــلُهُ فِيـــمَا مَضَـــى مِـــنْ سَـــالِفِ الأمْثَـــالِ

لقد كان أهله يفرحون لفرحه بهذا الزواج، كما كانت هذه مناسبة يتذاكر فيها بنو هاشم دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، ويُعبِّرون فيها عن بهجتهم بقرب مبعثه.

([1]) تحفل الكتب المؤلفة في دلائل النبوة بالدلائل التي كان يعرفها القرشيون وغيرهم. كما كان أصحاب الديانات السابقة يعرفون الصلاة على الأنبياء. وفي الدر المنثور للسيوطي (جـ5– ص406): "عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: هل يصلي ربك؟ فناداه ربه: (يا موسى إن سألوك هل يصلي ربك فقل: نعم. أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي)"..

([2]) القطعة رقم (5) من مجموع شعر البيضاء أم حكيم، في هذا الكتاب.

تاسعًا– شعرُ الإعداد التربوي

كثرت الأشعار والأراجيز التي كان يقولها الآباء والأمهاتُ لتزفين، أو تنفيز، أو ترقيص أبنائهم. وكانت في بعض الأحيان موجَّهةً إليهم لأهداف تربوية حيث كانت تحمل آمال الآباء في الأبناء، فيظل الأبناء يحفظون مضمون هذا الشعر الذي قيل فيهم، كأنه منهاج حياة لهم. ويُلْحَقُ بهذه الأشعار ما قاله الآباء والأمهاتُ لتعويذ أبنائهم من كل شيء مخيف، والدعاء لهم.

وكتاب "الترقيص" للأزدي الذي كان يضم كثيرًا من نصوص الترقيص، هو الآن في عداد المفقود من تراثنا العربي، لكن بعض المصادر احتفظت ببعض النصوص، ومنها ما قاله بنو هاشم لأبنائهم.

أ– التعويذ:

في شعر عبد المطلب، الذي جمعه د. المعيني، نوعٌ من الأراجيز التي تَخُصُّ الطفولة، لكنها للتعويذ، حيث يُرْوَى أنَّ عبد المطلب حمل حفيده النبيَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم، على عاتقه وطاف به حول الكعبة وهو يقول([1]):

أُعِيـــذُهُ بِـــاللهِ بَـــارِئِ النَّسَـــمْ
مِـنْ كُـلِّ مَـنْ يَسْـعَى بِسَـاقٍ وقَـدَمْ
وقَصْـفَةِ الْحُجَّـاجِ فـي الشَّـهْرِ الأصَـمْ
حتـــى أراهُ فـــي ذُرَا صَـــعْبٍ أشَـــمْ
ثُـــمَّ يكـــونُ رَبِّ غَـــيْرَ مُهْتَضَـــمْ

كما يُرْوَى له أنه حمله بعد ولادته، فأدخَلَهُ جوفَ الكعبة، وقام يدعو الله ويشكره على عطائه، قائلاً([2]):

الْحَـــمْدُ لِلـــهِ الـــذِي أعطـــانِي
هـــذا الغُـــلامَ الطَّيِّـــبَ الأرْدَانِ

([1]) القطعة رقم (43) من شعر عبد المطلب بن هاشم، جمع د. المعيني ص50.

([2]) القطعة رقم (39) من شعر عبد المطلب بن هاشم، جمع د. المعيني ص45.

قـد سَـادَ فـي الْمَهْـدِ علـى الغِـلْمَانِ
أعِيـــــذُهُ بِـــــاللهِ ذِي الأرْكَـــــانِ
حتـــى يكـــونَ بلغَـــةَ الفِتيـــانِ
حتـــى أرَاهُ بَـــالِغَ البُنيـــانِ
أعِيـــذُهُ مِـــنْ كُـــلِّ ذِي شَـــنآنِ
مِـــنْ حاسِـــدٍ مضـــطربِ العِنـــانِ

فهذا الرجز الذي يُقال عند الكعبة على البديهة، كان يبتهل به عبد المطلب إلى الله أن يُعَيذَ حفيده الذي بُشِّر به.

ب- الترقيص:

قد تكون الهدهدة- في حدِّ ذاتها- أو الغناء أو الترقيص، مفيدًا في النمو الوجداني للأطفال، أو لعله ينقل للأبناء حالة الحب والرفق التي يعيشها الأبوان تجاه أبنائهم. وهذه الطريقة من التعامل الوجداني مع الأطفال منتشرةٌ في كل زمان ومكان.

ومن نصوص الترقيص، التي تنقل عاطفة الحب إلى الأطفال، ما كان عبد المطلب يُرقص به ابنه الحارث أو الزبير، فيقول([1]):

يـــا بِـــأبِي يـــا بِـــأبِي يـــا بِـــأبِي
كأنَّـــهُ فـــي العِـــزِّ قـــيْسُ بْـــنُ عَـــدِي
فـــي دَارِ قَـــيْسٍ يَنْتَـــدِي أهْـــلُ النَّـــدِي

فهو يبثُّ أمانيه وآماله في أرجوزته لابنه وهو يهدهده، حيث كان قيسُ بنُ عَدِيٍّ من مشاهير رجال قريش، وكانت له دار يجتمع فيها الرجال للمشورات.

وقد جمع د. المعيني ثماني قطع شعرية من هذا النوع للزبير بن عبد المطلب، حيث كان يُدْخِلُ عليه إخوته الصغار وبناته ويُجْلِسُهم في حجره ويقول لهم هذه الأراجيز،

([1]) القطعة رقم (5) من المستدرك على شعر عبد المطلب، في هذا البحث.

ومنه ما يروى أنه دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو صغير، فأقعده في حجره، وقال([1]):

مُحَــــــمَّدَ بْـــــــنَ عَبْـــــدَمِ
عِشْــــــتَ بِعَـــــيْشٍ أنعَــــــمِ
لا زِلْـــــتَ فـــــي عَـــــيْشٍ عَـــمِ
ودَوْلَـــــــــةٍ ومَغْـــــــــــنَمِ
يُغْنِيـــــكَ عـــــنْ كُـــــلِّ العَـــمِ
فـــــي فَـــــرْعِ عِـــــزٍّ أسْـــــنَمِ
مُكَـــــــــرَّمٍ مُعَظَّـــــــــــمِ
دَامَ سَـــــــــجِيسَ الأزْلَـــــــمِ
وَعِشْــــــتَ حتـــــى تَهْـــــرَمِ

وقال الزبيرُ في مدح ابنته أمِّ الحكم وتزفينها([2]):

يـــــا حَبَّـــــذَا أمُّ الْحَـــــكَمْ
كأنَّـــــهَا رِيـــــمٌ أحَـــــمْ
يـــــا بَعْلَهَـــــا مـــــاذَا يَشَـــــمْ
ســـــاهَمَ فِيهَـــــا فسَـــــهَمْ

وعَلَّق د. عمر الدقاق، على ترقيصة الزبير لابنته، قائلاً: "هكذا تراءت الطفلةُ بين ذراعَيْ أبيها الزبير امرأةً نابهة، وزوجةً ذَاتَ شأن، بعد أن صارتْ إلى كنَفِ زوجها الكريم، وأنجبَتْ وَلَدًا أثيرًا لوالديه اسمه الحكم، وأصبحت ابنتُه بعد ذلك تُكنى بأم الحكم. وهذا التَّرَائِي أو النظَرُ المستقبَليُّ للأب لِمَا سيكونُ عليه شأنُ فتاته في قابل الأيام، ينم على عاطفة أبوية خالصة، وهو على بساطته يبدو مُحَبَّبًا إلى النَّفْس"([3]).

([1]) الأرجوزة في باب التزفين (الترقيص) في مجموع شعر الزبير بن عبد المطلب، د. المعيني ص**150**.
([2]) السابق ص**153**.
([3]) الترقيصات والترنيمات في أشعار الأمهات، د. عمر الدقاق، ص**36**.

وكانت فاطمةُ بنتُ أسد، تُرقص ابنها عقيلاً وهو صغير، فتقول([1]):

إنَّ عَقِيـــلاً كاسْـــمِهِ عَقِيـــلُ
وَبِيَبِـــي الْمُلَفَّـــفُ الْمَحْـــمُولُ
أنـــتَ تكـــونُ الســـيِّدُ النَّبِيـــلُ
إذَا تَهُـــبُّ شَـــمْألٌ بَلِيـــلُ
يُعْطِـــي رِجَـــالَ الْحَـــيِّ أوْ يُنِيـــلُ

فهي تتمنى لابنها أن يكون سيِّدًا، وأن يكون معطاء مُغيثًا لأهله، وهي من أهم القيم التي حملها جَدُّها هاشمُ بنُ عبد مناف.

ويدعُو العباسُ بنُ عبد المطلب لأبنائه العشرة بأن يكون لهم ذِكْرٌ وأن تظهر عليهم النعمة، وهو يُرقص ابنه تَمَّامًا، ويقول([2]):

تَـــمُّوا بِتَـــمَّامٍ، فَصَـــارُوا عَشَـــرَهْ
يـــا رَبِّ فاجْعَـــلْهُمْ كِرَامًـــا بَـــرَرَهْ
وَاجْعَـــلْ لَـــهُمْ ذِكْـــرًا وأنْـــمِ الثَّـــمَرَهْ

وتُرقص صفيةُ بنتُ عبد المطلب حفيدَها عبد الله بن الزبير، فتتمنى له ألاَّ يبخَل، وتصفه بالماجد، والفياض، والمؤمَّل، قائلة([3]):

إنَّ ابْـــنِيَ الأصْـــغَرَ جَـــبٌّ حَنْـــكَلْ
أخَـــافُ أنْ يَعْصِـــيَنِي ويَبْـــخَلْ
يَـــا رَبِّ أمْتِعْـــنِي بِبِـــكْرِي الأوَّلْ
الْمَاجِـــدِ الْفَيَّـــاضِ والْمُـــؤَمَّلْ

([1]) القطعة رقم (1) من مجموع شعر فاطمة بنت أسد.

([2]) القطعة رقم (6) من مجموع شعر العباس بن عبد المطلب.

([3]) القطعة رقم (18) من شعر صفية بنت عبد المطلب.

فهي تذكر بعض صفاته الجسمانية وهو صغير، فهو جَبٌّ، أي منتفخ، وهو حَنْكَل، أي قصير. وهي صفاتٌ مُضحكة ورقيقة في نفس الوقت، لأنها تصف طفلاً صغيرًا لم تتضح معالم صورته بعد.

جـ- التأديب:

مقصودٌ بالتأديب التنشئةُ على مبادئ خاصة، أو اعتناقُ قيم معينة، أو تحقيقُ آمال الآباء في أبنائهم، وقد ورد في شعر الزبير بن عبد المطلب، أراجيزُ محمَّلةٌ بالقيم، فهو حين أقعَدَ أخاه العَبَّاسَ في حجره قال له([1]):

إنَّ أخِـــي العَبَّـــاسَ عَـــفٌّ ذُو كـــرَمْ
فِيـــهِ عَـــن العَـــوْرَاءِ إنْ قِيلَـــتْ صَـــمَمْ
يَرْتَـــاحُ لِلْمَجْـــدِ ويُـــوفِي بِالـــذِّمَمْ
ويَنْحَـــرُ الكَوْسَـــاءَ فـــي اليَـــوْمِ الشَّـــبِمْ
أكْـــرِمْ بِأعْـــرَاقِكَ مِـــنْ خَـــالٍ وعَـــمْ

فالزبير يمدح أخاه باعتبار ما سيكون، فهو لا يستمع إلى ما تُصدره الأخلاق الرديئة من أقوال، ويوفي بالذمم، وفي أيام البرد والجوع يُعَرقب الناقة وينحرها.

وقد كانت صفية بنت عبد المطلب تُنشِّئ ابنها الزبير بن العوَّام، على أن يكون من المحاربين العظماء، بما لهم من صفات القوة والشجاعة والذكاء والمهارة، والدفاع عن الحقيقة، فهي تقول أرجوزة لتكون له منهاجًا يسير عليه([2]):

وأبِيـــكَ مَـــا زَبْـــرٌ بِنِـــكْسٍ أحْـــمَقْ
لكِنَّـــــهُ صَـــــقْرٌ كَرِيـــــمٌ مُعْـــــرَقْ
حَـــامِي الْحَقِيـــقِ مَاجِـــدٌ ذُو مَصْـــدَقْ
ويَضْـــرِبُ الكَـــبْشَ سَـــوَاءَ الْمَفْـــرَقْ

([1]) شعر الزبير بن عبد المطلب، جمع د. المعيني ص151.

([2]) القطعة رقم (17) من مجموع شعر صفية بنت عبد المطلب.

ولَـــــيْسَ بِالْـــــوَانِي ولا بِالأخْـــــرَقْ

فهو غير نِكْس، أي غير ضعيف، لكنه صقر، وله عِرْقٌ في الكرَم، وهو سَمح كريم معطاء، وشجاع مقدام يضرب الكبش، في وسط رأسه، وكبش القوم حاميتهم، وكبش الكتيبة قائدها. وليس بالواني، أي الضعيف البدن، وليس بالأخرق، أي الأحمق الجاهل بما يجب أن يفعله. وكل هذه من صفات مشاهير المحاربين الأقوياء، وكانت صفات المحاربين من أهم الصفات التي يتمناها الأهل في أبنائهم.

وأيُّ أمٍّ تلك التي تُرَبِّي أبناءها عن طريق الفنِّ الشعري، مثل صفية بنت عبد المطلب، فقد كان السائبُ بنُ العوَّام، وهو أخو الزبير بن العَوَّام، قد سَبَّها وهو صغير، فقالت له أمُّهُ صفية([1]):

يَسُـــبُّنِي السَّـــائِبُ مِـــنْ خَـــلْفِ الْجُـــدُرْ
لكِـــنْ أبُـــو الطَّاهِـــرِ زَبَّـــارٌ أمِـــرْ
مُبَـــــذِّرٌ لِمَالِـــــهِ بَـــــرٌّ غَفِـــــرْ

وها هي البيضاءُ أمُّ حكيم بنتُ عبد المطلب، تُزَفِّنُ ابْنَ ابنَتِهَا عثمانَ بن عَفَّان، وهو صغير، فتضع له بأرجوزتها منهاجًا أو نموذجًا يسير عليه، قائلة([2]):

ظَـــنِّي بِـــهِ صِـــدْقٌ وبِـــرْ
يـــــأمُرُهُ ويَأْتَـــــمِرْ
مِـــنْ فِتْيَـــةٍ بِـــيضٍ صُـــبُرْ
يَحْـــمُونَ عَـــوْرَاتِ الدُّبُـــرْ
ويَضْـــرِبُ الكَـــبْشَ النَّعِـــرْ
يَضْرِبُـــهُ حَـــتَّى يَخِـــرْ
مِـــنْ سُـــرُرٍ وَمِـــنْ أُخُـــرْ
بِـــكُلِّ مصْقُـــولٍ هَـــبِرْ

([1]) القطعة رقم (11) من مجموع شعر صفية بنت عبد المطلب.

([2]) القطعة رقم (2) من مجموع شعر البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب، في هذا الكتاب.

فالنموذج المطلوب هو أن يكون صادقًا بارًّا، وأن يتخلق بأخلاق الفرسان الذين يحمون أهليهم وعوراتهم، ويضرب المحاربين الشجعان الذين يصيحون في الحروب، فلا يخافهم، بل يقطع رقابهم من أمام ومن خلف، بسيف قاطع.

لقد بات واضحًا أن أخلاق المحاربين هي المثل الأعلى في المجتمع القرشي، مضافة إلى الأخلاق العامة والقيم الإنسانية الأصيلة، فتتمنى الأمهاتُ والجدَّاتُ لأبنائهن وأحفادهن أن يجمعوا بين كل القيم.